الفصل الثاني

المجاز في البيان النبوي

أولاً : الاستعارة

تمهيد :

لا يخفى أن المعاني إذا أديت في صورة تجريدية حقيقية ، ثبتت في الذهن والوعي مجردة من كل ظل جميل ، فإذا ما نقلت في معرض الاستعارة والتصوير كان لها شأنها البعيد ، لأنها تخاطب الحس والوجدان ، وتنفذ إلى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخييل ، والحس النفسي ، والوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء ويكون الذهن واحدا من تلك المنافذ الشتى ، مع الاتساع والتوكيد ، وإذا كانت الاستعارة تقوم على التشبيه ، وتشترك معه في إدراك ما بين الطرفين من شبه ، فهي تفوقه تصويراً وتأكيدا وتنفرد عنه بعملية خيالية هي ادعاء الاتحاد بين الطرفين والاكتفاء بواحد ، فكأن المجاز هنا تندمج فيه فكرتان تدل الكلمة عليهما ، بدلا من فكرة واحدة ، فأساسه المعنى المزدوج ؛ ولذا يسميه بعضهم «الشعور المزدوج» ومرجع هذا إلى المزج بين الخيال والوجدان ثم إلى إبراز عملهما بصورة لغوية دلالة النبوغ ، وعلامة العبقرية ـ كما يقول أرسطو ـ وتزيد الاستعارة بالكناية خاصة ما تعطيه من اتصاف الشبه بما هو من خصائص المشبه تخييلا ، ولقد عزا فريق من النقاد هذه الظاهرة إلى قوة الوجدان الإنساني ، بأن يمتد فيشمل ما يحيط به من الكائنات .

وحتى يتصف المجاز بالفن الكامل ينبغي أن يكون نابعا من مواطن الإحساس تلمح فيه نبرات النفس ، وخطرات الوجدان ، وتلمس منه صفاء الفطرة وهكذا كان المجاز النبوي ، فستراه يموج عاطفة وحياة ، وصدقا ،

يساعد الدعوة من الوجهة الفنية البحتة ، وإن له من هذه الوجهة لشأنا ، ذلك أن وظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه ، إنها صور تتجاوز بالعقل معناها الحرفي إلى معان أخرى مجازية ، يتبعها ما لا يحصى من المعاني الإضافية ، والإيحاءات المتوالية ، من كل ما يفتح للفكر ، والخيال آفاقا ، كل أولئك وغيره تكفله طريقة التصوير ، والتشخيص البارزة في المجاز[1] .

منهجنا :

بيان الأغراض العامة ، وكيف عالجتها الاستعارة النبوية ، ونتبع هذه المعالجة في شبه استقصاء كامل ، لنبين خصائصها الفنية العامة ، وكيف تركبت بها الصورة الأدبية وتميزت بسمات مفردة ، ثم النظر في الاستعمال الخاص لبعض المواد اللفظية ، وهل كان التصوير هنا كيفما اتفق ، أو كان يتبع منهجا في التصوير له دلالته وظلاله ، هذا المنهج كنا نرجوا أن يطبق في البيان النبوي دراسة موضوعية مستفيضة ، لتكون النتائج لازمة خاصة صادقة ـ على نمط ما طبق في الإعجاز القرآني ـ لكننا نجد من كتب في البلاغة النبوية بين إصدار أحكام غيبية على بيان لم يقدم له ما يعني بأحكامه وهي طريقة إنشائية غير تحليلية وبين تقعيد قاعدة بل اتباع قاعدة وضرب أمثلة وتناولها بخطابية مسترسلة وكلتا الطريقتين تفلح في تقديم المؤلف وإلقاء بعض الأضواء على جوانب من البلاغة المحمدية ، ولكن أسرارها الخاصة الكامنة فيها تظل في طيها المكنون .

---

(١) انظر في هذا : المزهر للسيوطي ص ٢٠٨ ، الطراز للعلوي :٨١/١ ، الأسلوب : أحمد الشايب ص ١٩٥ ، الأصول الفنية للأدب ، عبد الحميد حسن ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، دراسات في علم النفس الأدبي دكتور حامد عبد القادر : ص ٤٣ وما بعدها ، التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ص ١٩٩ وما بعدها ، محاضرات في عنصر الصدق : محمد النويهي ص ٣٤٠ ، سيدنا محمد في إبداعه الأدبي ، دكتور محمد أحمد البيومي ص ٢٣٦ .

الأغراض :

الإيمان ، والإسلام : قال رسول الله ﷺ :

١- « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا »[١].

٢- « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[٢].

٣- « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان »[٣].

والإيمان والإسلام من الأمور الشعورية ، المعتقدة ، المركبة من أجزاء والدعوة إلى أركان الإسلام ، أو الرضاء بالله ودينه ونبيه ، أو حب الله ورسوله على غيرهما وحب المرء لله وكراهية الكفر للنار : وقد اعتمدت الاستعارة المكنية بتجسيم الإسلام بمبنى كبير ذي أعمدة خمسة ، والإيمان بمطعوم له مذاق ، أو حلاوة ، ثم جاء هذا التخييل الحسي بإثبات « بني » إلى الإسلام ، تقوية لأصل الاستعارة ، ودعوى اتحاد الطرفين ، وإثبات الحلاوة والطعم للإيمان تصويراً للميل القلبي بهذا الحس المحبوب ، بل إن التركيب ليظهر هذا التجوز كأنه حقيقة مسلمة ، وذلك بتصدير الجملة بالفعل : « ذاق » و « وجد » لإخراج هذا الشعور المؤمن مخرج المذوقات ، والمرئيات التي تهواها النفس وتعمقها الوجدان ، ولقد جوز الإمام العيني في « بني الاسلام » كون الاستعارة تبعية أو تمثيلية ، بجعل الإسلام خباء ، والشهادة قطبه ، والأركان الأربعة أوتاده لكنه استظهر أنها مكنية[٤] ، وكأنه أدرك أن المبالغة في الإسلام نفسه لا في « بني » وليس هنا هيئة معارة ، بل التصريح بالأركان الخمسة ينافي المثل ، وهذا ما سبق تقريره .

---

(١) التاج الجامع ٢٨/١ .
(٢) المرجع السابق ٢٦/١ .
(٣) المرجع السابق ٢٤/١ .
(٤) انظر : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ، للعيني ١٢٠/١ .

السنة النبوية : قال رسول الله ﷺ :

١- « إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم، فعليه بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ »[(١)].

٢- عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ له : « يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس في قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال لي « يا بني، وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معى في الجنة »[(٢)].

٣- « إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا »[(٣)].

والأحاديث تدعوا إلى تنفيذ تعاليم السنة، والتمسك بها، معتمدة الاستعارة المكنية والتبعية : والتمسك يبلغ مداه في هذه الصورة، عضوا عليها بالنواجذ « . . . ونجد بها الاستعارة المكنية التخييلية في السنة المعقولة المصورة بالمحسوس الصلب الذي يقبض عليه لا باليد، ولا بمقدم الفم ولكن بجميعه، وكمل رسم الصورة بهذه « النواجذ » ترشيحا وفي العض دفع شعوري وإرادة متحفزة، واستماتة، إنه بجميع الفم لا بأطراف الأسنان، والخيال هنا لا يمل من تأمل هذه الصورة العجيبة، ليترسب المعنى بتأكيد التمسك الشديد بالسنة، والحرص البالغ حين تنتشر البدع، ويفشو الضلال ».

والحديثان الباقيان يصوران تنفيذ الهدي النبوي بالإحياء، وبعث الروح على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل، فالسنة حين تنفذ، كائن بعث فيه الحياة، فتحرك بعد همود، وزاد الثالث : تخصيص الأخذ بالسنة حين لا يأخذ بها الناس، مصورا هذا الترك بالإماتة، والجمع بين الإحياء والإماتة المجازيين متعاقبين، بما لهما من دلالات نفسية في الحس البشري، يؤكد المعنى والغرض من الترغيب في السنة، والترهيب من تركها، ولذا كان الجزاء متناسبا مع العمل في الحالين معا .

---

(١) التاج الجامع : ١/٤٦ .

(٢) المرجع السابق : ١/٣٧.

(٣) المرجع السابق : ١/٧٦ .

وقت الصلاة : قال رسول الله ﷺ :

١- في صلاة جبريل به عليه الصلاة والسلام «ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض»[1].

٢- «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ، ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا»[2].

٣- «فإذا زاغت الشمس ، فصل ما شئت ، فإن الصلاة مشهودة حتى تصلي العصر»[3].

٤- في وقت العصر «والعصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك مادامت الشمس حية والعشاء : إذا غاب الشفق ، إلى أن تمضي كواهل الليل» وسئل ، متى تصلي العشاء الآخرة ؟ فقال ﷺ «إذا ملأ الليل بطن كل واد»[4].

٥- «وقت صلاة الفجر ما لم يطلع قرن الشمس الأول ، ووقت صلاة الظهر إذا زالت الشمس عن بطن السماء ، ما لم يحضر العصر ، ووقت صلاة العصر مالم تصفر الشمس ، ويسقط قرنها الأول» . «إذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع ، وإذا غاب حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تغيب»[5].

٦- سئل ﷺ «أي الدعاء أسمع؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات»[6].

٧- «قوله ﷺ لرجل : هل صمت من شرر هذا الشهر شيئًا؟ قال : لا»[7].

---

(١) التاج الجامع ١٤٢/١ . (٢) المرجع السابق ٥٣/٢ .

(٣) المرجع السابق ١٥٠/١ .

(٤) صححها الشيخ ناصر هامش الحديث النبوي ، الصباغ ص ٦٢ .

(٥،٦) التاج الجامع ١٤٦/١ . (٧) المرجع السابق ٩٢/٢ .

والأحاديث ترسم لوحات فنية تحدد بدقة متناهية ، وقتا من الأوقات ، والوصف هنا ليس دافعه الترغيب أو الترهيب أو الإرشاد أو الإنذار ، بل داعي الفن بيانا ، وإشباعًا ، وإمتاعا بهذا التصوير والتجسيم الذي يبعث الحياة في الكائنات الجامدة ، والظواهر الطبيعية الثابتة فإذا هي متحركة ، حية شاخصة ، وقد تنوعت الاستعارة بين تبعية : « أسفرت الأرض ـ زاغت الشمس ـ يستطير الفجر ، الشمس حية » ، وبين مكنية : « كواهل الليل ـ قرن الشمس ـ حاجب الشمس ـ بطن السماء ـ جوف الليل الآخر ـ شرر الشهر » فالأرض حين ينتشر الضوء ، وتبين الأشياء : امرأة تسفر عن وجهها وتبدي خافي فتنتها ، وضوء الفجر ينتشر في الأفق كتحليق طائر سريع ، وكالشرر المتطاير في السرعة ، أو السرعة واللون ، والشمس في بدء ظهورها من حدبة الأرض كالطالع من وراء ساتر يستره ، فأول ما يبدو وجهه ، وأول ما يظهر من وجهه حاجباه ، ونلاحظ هنا الدقة بين المتشابهين ، فالشمس مكورة وحين ظهورها يبدو ولا خط دائري مقوس ، يماثل حاجب العين في طوله وتقوسه ، وأنه رفيع ، وفي أعلى الوجه وكذلك المتأمل للشمس حين تبرز وقد اختلط ما يشبه بخار الماء بدكنة الطل مكونا ساترا شفافا تنفذ منه ـ بدء الأمر ـ خطوط ضوئية غليظه مستطيلة كأنها قرون الحيوان ، والقرن هنا متحرك فهو يطلع أول النهار ويسقط آخره ، والعجيب من التقاط هذه المشاهد التي نراها ، وتبهرنا ولا نستطيع عنها تعبيرا .

ونجد ملحظا دقيقا في الصورة : « بطن السماء ، بطن كل واد ، جوف الليل الآخر » فكلمة بطن أو جوف لا يمكن أن تحل إحداهما مكان الأخرى في الأداء ، فالسماء نهارا صافية ـ مجوفة ـ في مرأى العين ـ دائرة وسيعة إلى داخل ـ وكذلك الوادي لمن يشرف عليه من أعلى : وسيع دائري في عمق ، كل منهما كالبطن تماما ، وفيه القرب والوضوح في السماء نهارا وفي الليل وقت العشاء حين يتماسك الظلام ويعم الكون ويملأ الوادي لكن ما زال على أطرافه من بقايا النهار أثارة ، بينما جوف الليل الآخر يوحيه من سكون وظلمات ضارية

في الأعماق ، خافية عن الناس وقد ناموا خاصة في أواخره ، كالجوف البعيد العميق المظلم الذي لا يرى ، من هنا كانت الدقة العجيبة في تركيب الصورة ليوفر لها ما شاء من دقة ، وجمال ، وتأثير .

والشمس بعد العصر ناشرة أضواءها يبعث الحديث بها الحياة والحركة فهي حية توزع شعاعها هنا وهناك ، وكما أن الليل له جوف فله كواهل تمضي أيضا إتماما لتصويره بالبعير الضخم ، وهذا الارتباط الذهني بين الليل بما فيه من ظلمات وطول ، وبين البعير ، معروف عند العرب ، وبيت امرئ القيس مثل في ذلك :

فقلت لـه لما تمطى بصلبه وأردف إعجازا ونـاء بكلكل

وإن كان الغرضان مختلفين فثلث الليل الأول وبداياته كهذه الكواهل التي تتصدر البعير ، أما كلكل امرئ القيس ـ بهذا اللفظ الثقيل ـ بعد كلمة ناء ، فإنما يعبر عن جو الألم ، والضيق ، والتبرم .

ويتصل بالوقت ، وبحركة الأرض حول الشمس هذا الحديث « إذا كان أحدكم في الفيء فقلص عنه فصار بعضه في الشمس ، وبعضه في الظل فليقم »(١) . والحديث في أدب النفس ، والسلوك الذكي الفطن ، ويهمنا تصوير زوال الظل وانحساره ـ لحركة الأرض حول الشمس ـ ببطء لا يدرك ـ بالتقلص والانكماش ، فكأن الفيء وهو عرض مرئي غير ملموس مستقل بإرادته ، مالك أمره ، قادر على الانفراد والانكماش وكأنه يتداخل في ذاته ويتجمع بعد امتداد ، والعجب في هذا التصوير الذي يجلو الخفي عن الأذهان واضحا ملء العيون يفجأ به العقل ويتابعه الخيال بعد أن ظهر ما كان خفيا .

ومنتصف الشهر يجسم بالسرر ، فالشهر مخلوق له سرة في بطنه ، ولما كانت الأيام التي تصام ندبا ثلاثة ، جمعت السرة سررا تخييلا يبدل عالم الحقائق مع ما في كلمة « سرة » من إيحاء بلب الأمر ، وخلاصة خيره ،

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٦٦ .

لاكتمال القمر فيها ، ثم من يتصور مخلوقا يجمع من السرر؟ إنه الاعجاز البياني .

من كل ما سبق تتبين الدقة في رسم الصورة وإتمامها وتزيينها باللون والمادة والحركة ، مع اختيار ألفاظ لا يغني عنها غيرها في تكوين الصورة وإشعاعها مع الإيجاز البليغ ، ونلاحظ أن بعض الصور قد تركبت في استعارتين كقوله : «ملأ الليل بطن كل واد» ففي ملأ : استعارة تبعية تفيد الحلول الشامل المحسوس ، وفي «بطن كل واد» استعارة مكنية تخييلية ، بجعل الوادي حيوانا ، وإثبات البطن له تخييلا ، ولفظ «كل» أفاد تعدد الحيوانات بتعدد الأودية ومعنى العبارة : إذا أتم انتشار الظلام ، وعم الكون ، وأداء هذا المعنى بهذا المجاز المتعدد أملته البصيرة الفنية والروح الأدبي دون تكلف أو معاناة .

الوضوء : قال رسول الله ﷺ :

١- «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»(١).

٢- «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»(٢).

ونلاحظ هذه الدعوة إلى الوضوء ببيان أثره في غفران الذنوب في الدنيا وإنارة أعضائه ورحمة صاحبه في الأخرى .

والأول تصوير للخطايا بأنها أمور تحس وترى فتمحى ، أو تخرج من الجسد مبالغة في الإزالة ، والانتفاء عن صاحبها ، حتى لو كانت لاصقة ملموسة، وصور الدرجات وهي معنوية بمعنى المنزلة والرتبة بمحسوس يرفع، وفي مقابلة محو الخطايا برفع الدرجات شغل للحس والخيال وتأكيد للغرض

(١،٢) التاج الجامع ٧٧/١ .

المبين آثار الوضوء ، كما أن في خروج الخطايا وتقرير المجاز بقوله «حتى تخرج من تحت أظفاره» بهذا التجسيم المتحرك : تأكيدا أيضا للغرض من الدعوة إلى الوضوء خاصة للصلوات .

وفي الآخرة صور آثار الوضوء من نور منبعث من أعضائه ـ وهو مشهد أخروي يتخيله المتلقي ـ بمشهد دنيوي مرئي ، هو الغرة والتحجيل في الخيل بهذا اللون المميز ، والمنظر المخالف إلى أحسن ، وبإيضاح آثار الوضوء في شطري الحياة باتباع الاستعارة التصريحية يبلغ الترغيب مداه .

المسجد والصلاة : قال عليه الصلاة والسلام :

١- «من تطهر في بيته ، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ، ليقضي فريضة من فرائض الله ، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئته ، والأخرى ترفع درجته»(١).

٢-«أقيموا الصلاة ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم»(٢).

٣- فيمن نام عن صلاة الفجر حتى أصبح «بال الشيطان في أذنه»(٣).

٤- «من ترك ثلاث جمع تهاونا بها ، طبع الله على قلبه»(٤).

٥- «لينتهين قوم عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين»(٥).

وقد اعتمدت الأحاديث هنا الاستعارة ترغيبا أو إرشادا أو ترهيبا وفي جانب الترغيب نجد التطهر والمشي إلى المساجد يذهب الخطايا ، وقد سبق في أحاديث الوضوء محو الخطايا ـ ولما كان هنا طهارة ـ كالوضوء ـ وزيادة بالمشي إلى المسجد وجدنا أثر ذلك في تركيب الاستعارة ، فهناك محو ، وهنا

---

(١) التاج الجامع ٢٣٢/١ .

(٢) المرجع السابق ١٦٥/١ .

(٣) المرجع السابق ٢٧٣/١ .

(٤) المرجع السابق ٣٢٤/١ .

(٥) المرجع السابق ٢٧٣/١ .

حط ملاحظ فيه السرعة والقوة والحفيف والإراحة ، ثم المداولة الدائمة بين حط لخطيئة ورفع لدرجة ، والحركة المتولدة منهما تابعة لحركة القدمين تنعش الخيال وتبعث على الانتباه ، وفي مادة (حط) نجد حديثا يدعو إلى ذكر الله تعالى (من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر)[1]. ونلاحظ :

١- بناء حط للمجهول دلالة على تلقائية المغفرة .

٢- الجمع (خطايا) والمبالغة في كثرتها (ولو كانت مثل زبد البحر) ترغيبا في هذا الذكر المبارك ، وفي إقامة الصلاة : إرشاد بتسوية الصفوف وسهولة الانقياد حينما تمس يد المؤمن كتف أخيه تقدمه أو تؤخره أو تسديه خللا ، لقد أدى كل ذلك بكلمة واحدة مصورا له بالليونة في الشيء اللين في المطاوعة وسرعة التشكل ، وإنها ليونة مبعثها حب الله ورسوله والمؤمنين وحب النظام ، ولقد أبدعت الاستعارة التبعية إيجازًا وتأكيدا وتخييلا مرغبا .

أما من ينام عن الفجر قبل الشروق ، خامل النفس ، ثقيل الرأس ، فاتر الرأس ، فاتر الهمة عن الصلاة والدعاء ، لقد سدت أذناه عن الإعلام بالأذان ، ويأتي المثل منفرًا ، إنه مشهد متوهم منفر للمخاطبين ، فالشيطان يعمد إلى أذنيه فيبول فيهما ، والغريب أن الأذن بشكلها وثقبها تناسب فكر الشيطان الذي يجعل منها مبالا له يسدهما عن الخير ، وإنه لسداد كريه تنفيرا وزجرا .

والتمثيل بعد منافذ السمع بالبول الشيطاني يوشك أن يفسدهما مناسب لساقط الهمة الغافل عن ذكر الله وعن الصلاة ، وفيه يمتزج التخويف بالتوبيخ والتقذير وليس كهذا التصوير باعث على النهوض إلى صلاة الفجر .

وهذا النكير يعظم فيمن يترك ثلاث جمع لاهيا معرضا هنا ينفذ بنا الحديث إلى قلبه لنراه قد امتلأ شرا وفسادا كوعاء ملئ بسائل ، ثم ربط وطبع

---

(١) التاج الجامع ٥/٨٧ .

عليه دلالة الامتلاء بالإثم والظلمة والطابع هو الله جل وعلا ، وهذه الاستعارة التمثيلية بما فيها من تصوير ما لا يدركه الوهم وهو طبع الله على القلب تؤكد المبالغة في تأثيم الغافل عن الجمعة ، وفساد قلبه جميعه ، ويترقى الترهيب فيبلغ مداه فيمن يدع الجمعات ، فنجد الأسلوب كله غضبًا يتلهب ، وثورة حانقة وتدبرا مخيفا ، فهنا القسم (ثلاثا) والتوكيد بالنون ثلاثا ، وتنكير قوم للتجهيل والإعراض ، والجمع في «الجمعات» تعظيما لها ، ونسبة الختم لا الطبع إلى الله تعالى واقعا على القلوب ثم الترقي في الإبعاد بذكر «ثم» والتهديد بالغفلة التامة مكتوبة عليهم ، ونلاحظ الغضب الماحق وقوة الأسلوب وارتفاع نبضه ، ووقع جرسه مع إيجازه : ليملأن الله قلوبهم غفلة وشرا وظلاما ثم يختم على هذه القلوب فلا يصل شعاع من الهدى إليها .

والختم - كما نرى - أقوى من الطبع ، ولذا ناسب كل منهما المقام والغرض فلا يجزئ عن الآخر ، وهذا من البيان بمكان .

ولقد أورد العلامة «سيد شريف» في حاشيته على المطول أقوالا ثلاثة في الآية : «ختم الله على قلوبهم» فقال : إن جعل المشبه به المعنى المصدري الحقيقي للختم ، والمشبه إحداث حالة في قلوبهم مانعة من نفوذ الحق فيها كان طرفا التشبيه مفردين ، والاستعارة تبعية ، وهو الوجه الأول في الكشاف ، وإن جعل المشبه به هيئة منتزعة من القلب ، والحالة الحادثة فيه ، ومنعها صاحبه من الانتفاع به ، والمشبه هيئة مركبة منتزعة من القلب والحالة الحادثة فيه ، ومنعها صاحبه من الانتفاع به ، في الأمور الدينية ، كان طرفا التشبيه مركبين ، والاستعارة تمثيلية ، قد اقتصر فيها من ألفاظ المشبه به على ما معناه عمدة في تصوير تلك الهيئة ، واعتبارها ، وباقي الألفاظ منوية مرادة ، وإن لم تكن مقدرة في نظم الكلام ، وليس هناك استعارة تبعية أصلاً على ما تقرر فيما سبق وهو الوجه الثاني في الكشاف ، والفائدة في الاقتصار على بعض الألفاظ الاختصار في العبارة وتكثير محتملاتها بأن تحمل تارة على التبعية ، وأخرى على التمثيلية ، ولو صرح بالكل تعينت التمثيلية إلى غير ذلك من الفوائد التي

لاحت لك في موردها إذا فكرت فيها ، وإن قصد في الآية إلى تشبيه قلوبهم بأشياء مختومة وجعل ذكر ذلك الختم الذي هو من روادف المستعار المسكوت عنه تنبيهًا عليه ، ورمزا إليه كان من قبيل الاستعارة بالكناية (١).

وتساؤلنا هنا : هل من الممكن قصد هذه الاستعارات كلها في وقت واحد؟ والجواب بالنفي ، فلابد من تعين إحداهما ، تعينا يقتضيه المقام ؛ ولذا فنحن نرفض ما جرى عليه البلاغيون من احتمال التعدد في الاستعارة ، ذلك أن السياق والمقام إن اقتضيا المبالغة في الفعل ومشتقاته المتجوز فيها كانت تبعية، أو المصدر وما في معناه كانت أصلية ، أو تصوير قوة الاسم ومدخليته في التجوز بتجسيمه كانت كنائية ، وهنا في العبارة «الآية والحديث» نرى في الواقع هيئة بأكملها إناء يملأ ثم يختم قد نقلت إلى إضلال الله التام لقلوب العاصين تصويرا ومبالغة وتأكيدا وهذا مراد النص ، والله أعلم ، أما المبالغة في الختم أو المبالغة في القلوب وحدها فهي نظرة جزئية لا تحيط بأسرار التعبير ، أما تكثير المحتملات كما أشار إليه فهو مبدأ نقدي يقصد به كثرة المعاني الإضافية والثانوية ، أو تحمل العبارة لعديد من الأوجه المتناسبة غير المتنافرة ، أما كثرة الاحتمالات في إخراج الأسلوب على أنواع الاستعارات دفعة واحدة فهو خروج عن طبيعة الأساليب وغرض المتكلمين ، ومقامات الأحوال .

الصدقة : قال رسول الله ﷺ :

١- «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها» (٢).

٢- من السبعة الذين يظلهم الله في ظله «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه» (٣).

٣- «إن الصدقة لتطفيء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء» (٤).

---

(١) حاشية المطول : ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .
(٢) التاج الجامع ٣/٥٨ .
(٣) المرجع السابق ٥/٧٦ .
(٤) المرجع السابق ٢/٥٠ .

٤- من حديث معاذ بن جبل قال رسول الله ﷺ «ألا أدلك على أبواب الخير الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين»[١].

والحديث الأول : يعمد بالاستعارة التصريحية إلى صورة خاصة في إنفاق المال ، لأن صاحبه أحد اثنين ينبغي أن يحسدا لفوزهما في الدنيا والآخرة مع العالم العامل ، فله إذن سمات خاصة : غني أوتى مالا ، ثانيا : مطبوع على حب الخير فكأنه مسلط على المال ليس له هم إلا بذله ، ثالثًا : بذل هذا المال في سبيل الحق بذلا كاملا كمن يعمد إلى نفس فيزهقها وهنا مع تصوير المبالغة الكاملة في الإنفاق ، الذي لا يبقى أثرًا ، نلمح هذه الإرادة ، وهذه الطبيعة الخيرة ، والشعور الصادق الدافع إلى البذل كهذا الشعور في الإهلاك العمد مع سبق الإصرار ، فهو تصوير حي يتناول أعماق الرجل وأثر ذلك على ماله المنفق .

أما الحديث الثاني : فيبين طريقة الإنفاق : وحب الإخفاء هنا أمر خفي أنطقته الاستعارة بالكناية ، إننا هنا أمام يد متصرفة حية عاقلة تعرف ، وتدري امتد إليها الإشعاع الواجداني فأيد لها إنسانا ناطقا ذكيا ، ومع ذلك أخفق في اكتشاف هذا الإنفاق ، إنه إخفاء وتمويه على بعض الكيان ، وهذا التشخيص سري في التعبير كله : فجاء «ما أنفقت يمينه» لتقارن الشمال وتمنحها حسا وتصرفا ، والمقصود صاحبها مجازا مرسلا ، كما لا يخفى أن هذه الصورة بجزئياتها مسوقة في النهاية كناية عن تأكيد الإخفاء ، (فأخفاها) .

وقد أوردت حديثين هنا سبقا في التشبيه لأنهما يكملان فكرة مسلسلة ، فالتشبيه يوضح أن الصدقة في نفعها ودفعها الأذى والذنب ، كالماء البارد يطفئ النار ، والحديث الأخير مترتب عليه في المعنى ذلك أن غضب الرب مترتب على كثرة الخطايا ، لاسيما أن اختيار لفظ «الرب» بمعنى المربي ذى النعم

---

(١) التاج الجامع ٢/٤٢ .

يدل على أنه لا يغضب إلا إذا بلغت الذنوب مبلغا . ولأنه رب يندفع غضبه بإذنه بسبب الصدقة ، والاستعارة التبعية في الفعل « تطفئ » مزجت جوا من الرهبة بتصوير الغضب الإلهي نيرانا هدأتها الصدقة ففي لمحة خاطفة تندفع الصدقة فتطفأ النيران ، ويهدأ رعب الوجدان بلوغا في الترغيب والترهيب كل مدى .

ذكر الله تعالى : قال رسول الله ﷺ : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ، ولو كانت مثل زبد البحر »[1].

« كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »[2]، « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت »[3].

وصيغ الذكر هنا ألفاظ عرضية منحها الحديث أثرا ملموسا ، وواقعا ماديا محسوسا ، فهى تذهب الخطايا متسببة في محوها ، والاستعارة في « حطت » تبعية تؤكد الأثر الفوري البالغ لهذا العدد من الذكر المبارك دعوة إليه ، وقد سبق الحديث قريبا . والاستعارة في الثاني تصور سهولة الذكر على اللسان بالخفة وكثرة الثواب بالثقل فهنا مادة وجرم لها خفة وثقل يوحي بعظم الحجم والجرم وهذا التضاد بين الثقل والخفة ، والتنقل بين الدنيا والآخرة يعطي للخيال ميدانًا طرفاه الدنيا والآخرة مع تتبع المقارنة بين الدنيا والآخرة والثقل والخفة تأكيدًا وحسن تصوير ، وصيغ الاستغفار أفضلها ما ذكره الحديث الأخير وقد استعار السيادة للأفضلية دليلا عليها ودعوة وتقوية للغرض والخيال هنا يتصور سيدًا ومسودا ، وأميرًا ورعية وجلالا ومهابة ، وخضوعا واحتراما .

---

(١) التاج الجامع ٥/٨٧ .

(٢) المرجع السابق ٥/٩٨ .

(٣) المرجع السابق ٥/١٤٧ .

الابتهالات :

سئل ﷺ : أي الليل أسمع ؟ قال : « جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات »[1].

« إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء »[2].

ومن دعاء الاستسقاء : حين استسقى ﷺ لقومه فغلبتهم الأمطار فشكوا فدعا رسول الله ﷺ : « اللهم على رؤوس الجبال ، والآكام وبطون الأودية ومنابت الشجر »[3].

« دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء »[4].

ب ـ من دعاء النبي ﷺ : ـ « اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وافتح لي أبواب فضلك »[5].

ـ « اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم »[6].

ـ « رب تقبل توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، وسدد لساني ، واهد قلبي ، واسلل سخيمة صدري »[7].

ـ « اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد »[8].

ـ « اللهم اجعل في قلبي نورا ، وفي لساني نورا ، وفي سمعي نورا ، وفي بصري نورا ، ومن فوقي نورا ، ومن تحتي نورا ، وعن يميني نورا ، وعن شمالي نورا ، ومن بين يدي نورا ومن خلفي نورا ، واجعل في نفسي نورا ، وأعظم لي نورا »[9].

ـ « اللهم هون علينا السفر ، واطوعنا بعده » .

---

(١) التاج الجامع ١٤٩/١ .
(٢) المرجع السابق ١٠١/١ .
(٣) المرجع السابق ٣١٦/١ .
(٤) المرجع السابق ١١٦/٥ .
(٥) المرجع السابق ٢٣٧/١ .
(٦) المرجع السابق ٣١٩/٤ .
(٧،٨) المرجع السابق ١٢٠/٥ .
(٩) المرجع السابق ٣٣٠/١ .

- اللهم أطو له الأرض، وهون عليه السفر، في دعائه ﷺ لرجل مسافر[1].
- «اللهم عافني في جسدي، وعافني في بصري، واجعله الوارث مني»[2].
- «متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا»[3].

والمجموعة الأولى تبين في الأول: وقتا مباركا يجاب فيه الدعاء، حين ينقضي من الليل أكثره ويبسط السكون أجنحته الشفافة، وكذلك أثر الفرائض الخمس. وقد عبر بالجوف، والدبر، تجسيما لليل والصلاة من ناحية، وتأكيدا للمعنى بهذا التصوير الحسي بالبعير الذي لا يفارق العربي ليله ونهاره على سبيل المكنية التخييلية.

واستكمالا لهذه الأعضاء المعهودة نلقي الحديث «اللهم على رؤوس الجبال والآكام وبطون الأودية، ومنابت الشجر» وقد استعار الرأس لما ارتفع من قمم، والبطن لما انخفض من الأودية، ومع التقابل الكاشف تعجب بهذا الرسم لصورة طبيعية فذة، مختلفة الألوان والأشكال، والأحجام بين شاهق الجبال وبارز الآكام، ثم انحدار العين والخيال إلى أودية خفيضة عميقة الأوساط كالبطون المنبعجة على أن تكوّن الصورة من الخلف، وثَمَّ أشجار بها كثيرة مختلفة ثم تخصيص الرؤوس والبطون عن عمد إبعادًا للأذى عمن في السفوح والمنحدرات، والتصوير النبوي - لاهتمام العربي بالبعير وأنه ماثل دوما أمامه - يقلبه على كل وجوهه تمثيلا به وتجوزا، في المعنوي والمحسوس على السواء، ولا بأس من إيراد هذا الحديث دليلا من أدلة سلفت «رأيت قوما من أمتي يركبون ظهر البحر كالملوك على الأسرة»[4].

الأحسن أن يقال شبه البحر بالبعير، وأسند إليه الظهر تخييلا، والغريب أن أحدهما سائل مترجرج، والآخر حي متماسك، ولا نغفل عن تشبيه الغزاة بالملوك، إلا مع المجاز على قوة الإسلام وتحكم أهله في البحر الذي احتواه المجاز وأحاط به الخيال واستحوذ عليه الذهن فصار محدودا كبعير يمتطيه

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٣١.
(٣،٢) المرجع السابق ٥/١٢١.
(٤) المرجع السابق ٤/٣٣٠.

العربي في صحرائه كما يلفتنا هذا الإيجاز البالغ البارع في المجاز إذ الأصل : يركبون سفنا تسير على سطح البحر الذي يشبه ظهر البعير في امتطائه والإفاده منه ، فأتى بكلمة واحدة مسندة إلى البحر وهي الظهر ليطوي الكلام والبحر ، ويبعث عجبًا لا تلحقه الظنون .

وثَمَّ أقوام لا يعرفون آداب الدعاء فيهم يدعون بما لا يفهمون ، وقد استعار الحديث الاعتداء وتجاوز الحد لما لم يرد من دعاء ولم يعرف تعليما ووعيدا .

كما أن هناك دعوة خاصة يمنحها الحديث جرما وحيزا وتحركا إلى أعلى على سبيل الاستعارة التبعية ، مع تجدر هذا العلو فوق الغمام ، ثم العطف ، «بفتح أبواب السماء لها» ، والصورة واسعة الخطو بدءا من ظلم وتناحر ، ومظلوم يبث ربه شكاته ، ودعوة تنطلق كالصاروخ حتى تمكنت فوق الغمام المتحرك أسود أو أبيض بل لا تمكث ، إنها في رحلتها الوامضة تفتح لها جملة من أبواب السماء والرب جلا وعلا يناجيها والخيال يتابع هذه الرحلة في دهشة وانبهار ، وإن منافذ النفس لتندمج مع هذا التصوير تنفيرا من صفة إنسانية غير كريمة (الظلم) ، أما المجموعة الثانية فخاصة بابتهالات النبوة : هذه الابتهالات التي شغلت من البيان النبوي مكانا ، وكان للاستعارة منها نصيب .

ونلاحظ أن الدعاء يتنوع بين ما فيه من معنى التغيير والإزالة ومنه :

اغسل حوبتي - اغسل عني خطاياي - اسلل سخيمة صدري - أنت تكشف المغرم والمأثم ، وكلها تبعية ويلفتنا هنا :

١- التعبير بصفة الغسل ، وهي أبلغ أثرا من المحو والحط ، مناسبة لمقام التضرع النبوي والفناء في المناجاة بين الحبيب وحبيبه .

٢- الحوبة بمعنى الإثم مفرد فاكتفى بطلب الغسل ، فلما كان الجمع «خطايا» مضافا إلى ياء المتكلم ، قدم الجار والمجرور «عني» على المفعول «خطاياي» إسراعا وإلحاحا ، بإبعادها عنه ، وأملا في الإجابة قبل ذكر الخطايا ثم تأخيرها حياء ، وقد رشح الاستعارة بقوله «بماء الثلج والبرد» مبالغة في التنقية والصفاء . ولما أتى بالمغرم وهو الدين معطوفا عليها

الإثم ، وكان للذين هم قابض ، وغم ثقيل ، وللذنب وطأة وقسوة ، وجمعا معا في قرن واحد ، ناسب الإتيان بالكشف معارا للإزالة فيهما .

كذلك لما كانت البغضاء غير محببة ـ ولو للأعداء ـ وكان لها تسرب خفي إلى أعماق القلب تسربا لا يناسبه الغسل أو الكشف ناسب إعارة السل للإزالة أيضا مبالغة في الإزالة وبرما بهذا المتغلغل الخفي البغيض تعليمًا للناس وإرشادًا . وهكذا لا يمكن للفظ معار أن يحل مكان آخر في الاستعارة ، كما لا يمكن أن تكون هذه المفارقات العجيبة إلا عن خطة في قاعدة التصوير البياني في البلاغة النبوية .

وفيما سبق إزالة وانكشاف ، ويناسبه حديث النور ، وإن كان في الأول طلبا للدفع ، وفي الثاني طلبا للمنح ، والنور هنا مراد به الهداية والتوفيق ، والبراعة هنا في تكرار الكلمة مقصودا بها وجه من الهداية لنظراته مناسبا لما ألحق به من عضو أو جهة ، ويكون المعنى : اللهم اجعل في قلبي حقا وحبا له ، وعلى لساني أقوالاً طيبة ، وفي سمعي هداية لا يسمع إلا صدقًا ، ولا أبصر إلا طيبا ، وقدر لي توفيقا وحفظا يرعاني من كل جهاتي ، واجعل الهداية والعناية تغمرني ، وتفيض على نفسي ثم اقض لي منها ما يرضيني ، وهذا الحديث النوراني يصور للمتضرع به سامجا في النور الخالد غارقا في المحبة ، وقد أدت الاستعارة التصريحية كل ذلك ببراعة .

كما نجد من الدعاء بصفة تفيد التقريب والسرعة في خفاء ما يدور حول صفة الطي «أطو لنا الأرض» وفي السفر «أطوعنا بعده» وقد استعار الطي في الثوب وغيره لتقريب المسافة ، وتهوين السفر ، وسرعة الوصول إلى الغاية ، مبالغة في الإسراع ، وقد برعت الاستعارة في الإحاطة بالطريق الطويل ، وجعله في الخيال محدودا يطوي وينفذ منه ، والاستعارة هنا تبعية لقصد المبالغة في المصدر وهو الإسراع المستعار له الطي ، ولقد جاءت مادة «طوى» في حديث آخر يرشد إلى السفر بالليل «عليكم بالدلجة فإن الأرض

تطوى بالليل»[1]، وتكرار الأرض بإعادة ضميرها صب العناية عليها ، ونبه الخيال إليها ، فوضح فيها التصوير والتخييل بجعل الاستعارة مكنية في الثوب المشبه به الأرض المضمر في النفس ، ثم في إثبات اللازم وهى الطي « تطوى » تخييلا ، وفي كل ما سبق نرى الأرض وبعد السفر رغم الثبات والعظم قد تمكن منهما الأسلوب وطواها الخيال في لمحة تعبيرا عن رغبة نفسية عند المتضرع الذي يلمح بخياله نهاية السفر .

وبقي من ابتهالات النبوة سالكا سبيل الاستعارة التبعية « واجعله الوارث مني» ، « واجعله الوارث منا» والأول في حاسة البصر ، والثاني في السمع والبصر والقوة ، ومعنى الإرث هنا : احفظ علينا أسماعنا وأبصارنا سليمة صحيحة متمتعين بها ، معافين من الابتلاء بها حتى نموت وهى أشد قوة وأعظم نفعا ، وتصوير البقاء هكذا بالإرث مبالغة شديدة ، فالوارث يبقى بعد الميت يقينا وهذه الحواس والعافية مرجو أن تلازم المرء حياته ـ ولو صح أن تبقى وحيدة بعد الموت ، كان الأحرى أن تبقى ، وهذا التصوير فيما هو كالمتضاد يعمل الفكر ويدفع الخيال إلى الحركة لتأكيد المعنى بالمبالغة في التضرع ، والتمتع بهذه الأعضاء والصحة ، قال الإمام الزمخشري رحمه الله « قيل للباقي وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه ، ومنه : قوله ﷺ في دعائه « واجعله الوارث منا »[2].

الإنسان بين الدنيا والآخرة :

أ- الطبيعة الإنسانية : قال رسول الله ﷺ : « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وكثرة المال»[3].

« يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر »[4].

---

(١) التاج الجامع ٣٤٧/٤ .
(٢) الكشاف للزمخشري ٤٤٨/٢ .
(٣) التاج الجامع ١٦٣/٥ .
(٤) المرجع السابق ١٦٨/٥ .

وقد تناولت الاستعارة التبعية الفكرة الأولى : قلب الشيخ شاب ، ويشب معه اثنتان . والمراد بالشباب هنا ما يدل عليه من الفتاء والحرارة ، وتوقد العزم وشحذ الإرادة مستعار للرغبة القوية والميل الشديد للمال وطول العمر ، تصويرا لهذه الطبيعة الإنسانية الملازمة للمرء حتى يهرم ويموت وبموازنة الحديثين نخرج بما يلي :

١- إسناد الشباب إلى القلب أولاً ؛ لأنه موطن الشعور والرغبة مع اقتران كلمتي الشيخ وشاب طباقا يجلي الصورة ويقلب الانقباض والضعف إلى نهوض وتوثب .

٢- أسند الهرم إلى ابن آدم ، وأسند الشباب إلى خصلتين شعوريتين ، فشخصهما وجعلهما في معية ابن آدم مع إحداث التضاد أيضًا إشراقًا في المعنى وتأكيدًا له .

٣- قدم طول الحياة مع الشيخ إيماء إلى أن الحياة أهم عند الشيخ الكبير ويأتي بعده المال ، وقدم المال في الحديث الثاني دلالة على أن حب المال حبا جما شعور ملازم للمرء منذ صغره وتعقله ـ كأن المرء يقضي حياته والمال لديه أولى ـ حتى إذا صار شيخًا وأدرك حقيقة الحياة كأن العمر لديه أولى على ما وضحت ذلك في تناسب الألفاظ ومعانيها .

ب - الدنيا وفتنتها :

قال رسول الله ﷺ : «انظروا إلى من أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»[1].

«والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[2].

---

(١) التاج الجامع ١٦٦/٥ .

(٢) المرجع السابق ١٦٠/٥.

« إن هذا المال حلوة خضرة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم ، إلا آكلة الخضر ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فأحيزت وثلطت وبالت ـ ثم عادت فأكلت ـ وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع »(1).

«من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا »(2).

« تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة ، والخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرض »(3).

« من حديث : إنما الدنيا لا ربعة نفر »و« عبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علما فهو يخبط فيه بغير علم لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقًا فهذا بأخبث المنازل »(4).

قوله ﷺ لمن قال له إني أحبك « إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه »(5).

والبيان هنا يعالج الدنيا بحكمة تربوية متخذا أساليب عدة بين توجيه برفق أو تحذير بعنف ، أو بيان العقلاء منها كما فهموها على حقيقتها ،أو الاستغراق في عبادتها ، وضياع حظهم في الآخرة عبرة وحذرا .

والإرشاد بلطف «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم» داعيا إلى القناعة والرضا وهنا يبين سنة الله في اختلاف الناس درجات ؛ وقد صور قلة الغنى والمنزلة ، وكثرة الثراء بالسفل والفوق تصويرًا حسيًّا ، في قرن واحد لمنازل الناس في سلم الحياة ، حقيقة كونية ، وسنة الله في خلقه .

---

(1) التاج الجامع ٥/١٢٢ .
(2) المرجع السابق ٥/١٦٨ .
(3) المرجع السابق ٥/١٦٢ .
(4) المرجع السابق ١/٥٦ .
(5) المرجع السابق ٥/١٧١ .

والثاني : يبدأ رفيقًا «أخاف أن تبسط عليكم الدنيا» مصورا كثرة المال ببسط شيء كان مقبوضًا فيمتد ويطول تجسيما للمعنى بلفظ محبوب هو «البسط» دلالة الإغراء والخداع ، ثم يشتد الحديث بالإنذار مما يترتب على البسط من التنافس ثم الإهلاك ، ومثله الحديث بعده «إن الدنيا حلوة خضرة» قال السيد رشيد رضا : «قال الأزهري وإنما تقصيت رواية الخبر ؛ لأنه إذا بتر استغلق معناه ، وفيه مثلان : ضرب أحدهما للمفرط في جمع الدنيا مع منع ما جمع من حقه، والمثل الآخر ضربه للمقتصد في جمع المال وبذله في حقه، فأما قوله ﷺ «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا» فهو مثل الحريص والمفرط في الجمع والمنع ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التي تحلو إلى الماشية فتكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، كذلك الذي يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق منها ، يهلك في الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب ، وأما مثل المقتصد المحمود فقوله ﷺ : إلا آكلة الخضر . . . وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التي تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلا ، ولكنه من الجنبة التي ترعاها بعد هيج العشب ويبسه . . . قال : «فضرب النبي ﷺ آكلة الخضر مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف في متاعها والحرص عليها وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، والحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها»(١).

إذن في هذا البيت مثلان ، لكن أود التنبيه على مادة هاتين الاستعارتين :

لقد كون أجزاءهما الواقع الصحراوي بأعشابه ونباته الطيب منه والخبيث فهنا ربيع مهيج للحس والخيال ، وحيوان صحراوي بين سالم يمرح ويرتع أو تالف أهلكه العشب الحار ، وفيه ما استقبل عين الشمس ومهب النسيم ، فهى صورة تحوي عالما مزدحم الألوان والأصداء والأضواء ، ثم إن التمثيل

---

(١) انظر : هامش أسرار البلاغة ص ٣٠٦-٣٠٨ ، تحقيق السيد رشيد رضا .

بالحيوان يقتل أو يسلم وبآكلة الخضر في وضع خاص متحرك إيماء من طرف خفي إلى عبيد الدنيا وأنهم سوائم حتفها في بطونها وأفواهها ، وأن الدنيا نبات ربيعي يلتهمه حيوانات قد تهلك به ، وقد تحوله إلى ثلط غير كريم .

أما مفهوم الدنيا عند العقلاء فالأمن والعافية وما يكفي اليوم من قوت وقد التقط المجاز النبوي صورة فذة للأمن والسكينة بتمثيل من يعيش بين قومه هانئا بالسرب من الظباء مثلا في الطمأنينة والسكن ، والقطيع من الحيوان إذا أمن كانت الألفة والحركة في هدوء وانضمام أفراده في دعة ، بما يرسم شعور الأمن على الطبيعة ، ونكاد نلمح من وجه الصورة المقابل خوف المرء يوزع عليه نفسه ويفرق شمله كهذا القطيع إذا ركبه الذعر فمزقه شر ممزق .

وقد يشتد النكير على من أقبلوا على الدنيا «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة» فهنا تصدير الذي يسخر قواه لجمع المال وحبه بالعبد استعارة تصريحية في سلب الحرية والإرادة ، والتحكم والذل والانقياد بما تعطي لفظة (عبد) من انطباعات جمة ، ونلاحظ مناسبة الفعل «تعس» لحال العبد السيئة إخبارا بما يئول إليه أمره ، أو دعاء عليه أو وصفا لحقيقة حاله لأن العبودية لغير الله تعاسة ومذلة ، تنفيرا وترهيبًا .

وهناك الغني الذي يتصرف في المال جهلا بغير علم يصور تصرفه هذا بتخبط الأعمى في طريق على غير هدى دلالة على سوء التصرف والعقبى .

أما الحديث الأخير «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا» والتجفاف ما يوضع على ظهر الفرس ليقيه مواقع السهام ، والجراح ، ويخفف رطوبة العرق ، فقد صور الاستعداد للفقر بصورة مرموقة ملموسة من حياة العرب وفيها خفة وسحر ، فهو ﷺ ينصح بإحضار تجفاف وانتظار الفقر فرسا يسرع إليه ونلمح المزج بين خارج الإنسان وشعوره بالاهتمام والتوقع .

والاستعارة المكنية واضحة ، قال صاحب دليل الفالحين رحمه الله نقلا عن العاقولي «إن في الحديث استعارة مكنية تتبعها استعارة تخييلية شبه الفقر

بالسهم الصائب والسيف القاطع ، والرمح النافذ ، وشبه صبره عليه بالتجفاف الذي يلبسه الإنسان أو يلبسه فرسه ليقيه ذلك ، أي فالتشبيه المضمر في النفس استعارة مكنية وإثبات التجفاف استعارة تخييلية[1] ، فهو قد جعل التجفاف شاملا للفرس أيضا فوسع دائرة التصوير ، ولا بأس فمرد ذلك إلى الوضع اللغوي لكنه لم يبق التجفاف على حقيقته فاستعاره للصبر ، وبقاؤه على الحقيقة أدل في عالم التصوير والبيان ، ثم كيف يؤمر بالصبر على بلاء (الفقر) لم يقع بعد».

كما نلاحظ هنا تشيع الشريف المرتضى فقد رواه الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مغفل ﷺ ، فنسبه المرتضى ابتداء إلى الإمام علي ﷺ نقلا عن أبي عبيد بن سلام في «غريب الحديث» دالا على بلاغة الإمام وكان ينبغي التثبت[2].

أما نهاية الدنيا فقد نفذ إليها المجاز النبوي في عالم المجهول ليجلوها صورة متخيلة عجيبة «تقيء الأرض أفلاذ كبدها مثل الأسطوان من الذهب والفضة»[3]، وقد اتفق الشريفان على الاستعارة التبعية ، فهي عند المرتضى إخراج وإظهار وعند الرضي مبالغة في إخراج كنوزها حتى لا يخفى منها خافية ، ولا يبقى باقية ، وذلك كما يقول القائل : تقيأ فلان كبده إذا أراد المبالغة في وصفه باستيعاب جميع ما في جوفه[4].

وهذا حسن ، لكنهما رحمهما الله تركا سر السحر في هذا التعبير وهو «القيء» وذلك لغرضين :

أولا : ما في مشهد التقيؤ من تنفر وقذر ، والمتقيأ خبث تعافه النفس ورجع تنفر منه ، فالذي يتقاتل عليه الناس هكذا إثارة للعبرة والعجب وبيانا لحق خفي على الناس .

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان الصديقي ١٨٤/٤ .
(٢) انظر : أمالي المرتضى : ٣١/١ . (٣) التاج : ٢١٩/٥ .
(٤) انظر : أمالي المرتضى ٦٥/١ ، ٦٦ ، المجازات النبوية ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ثانيًا : الإلماع إلى الإخراج الاضطراري كالتقيؤ وهو قيء يلائم الأرض في مثل ضخامتها إشعارا بالقهر الإلهي والغضب على عبيد الدنيا ، وترهيبا ـ من وراء ستار ـ من التمسك بما هذه نهايته ، وما أبرع ما يرسم الحديث من مشاهد غيبية هي بيان للناس وهدى وموعظة وفن أصيل .

الصبر : أ- قال رسول الله ﷺ :

١- «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة»[1].

٢- «فيمن أوصى أن يسقى عسلا ثلاث مرات «صدق الله ، وكذب بطن أخيك اسقه عسلا» «فسقاه فبرأ»[2].

ب - وقال ﷺ : «من كان له فرطان من أمتي أدخله الله بهما الجنة ، فقالت عائشة : فمن كان له فرط من أمتك؟ قال ومن كان له فرط بها موفقة ، قالت فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال : فأنا فرط أمتي لن يصابوا بمثلي»[3].

لقد احتظرت بحظار شديد من النار[4].

والأحاديث تدور حول ما يدعو إلى الصبر من مرض وأذى ، أو موت ، والحديث الأول في المجموعة الأولى : يوضح أثر الأذى مهما قل ـ يصاب به المؤمن في رفع منزلته وغفران ذنوبه ، وقد سبق الترغيب برفع الدرجات وحط الخطايا ، لكنا نلاحظ هنا تقديم رفع الدرجة على حط الخطيئة ، ولعل في ذلك تعجيلا بالمسرة مناسبة لحالته النفسية والجسمية ، وترغيبا في الصبر ، وعدم التضجر وبيانا لأثر الأذى في تقريب المؤمن من ربه .

---

(١) التاج الجامع : ٣٤٧/١ .

(٢) المرجع السابق ٢٠١/٣.

(٣،٤) المرجع السابق ٣٤٩/١ .

ويلحق بذلك التداوي ، ونرى هنا صورة طريفة تكون أكثر طرافة لو خرجناها على المكنية لا المجاز المرسل «صدق الله وكذب بطن أخيك» وقد يقال إنه قصد إعارة الكذب في الأقوال لعدم الشفاء الخارج عن واقع الأشياء استعارة تبعية بيد أن قوة الصورة تظهر في المكنية التخييلية قياسا على صورة أخرى «حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه» والمقصود تصوير البطن بإنسان عاقل ثم نسبة الكذب إلى البطن تخييلا وتدعيمًا للصورة ، وذما للبطن الغريب الذي لم يتأثر بالدواء ، فعدم تأثره أعطى له مسحة من الاستقلال مما يقوي النظرة التخييلية .

والمجموعة الثانية تعالج الصبر على فقد الأولاد والرضا بقضاء الله ببيان ثوابه ، والحديث الأول يقدم صورة مدهشة ملتقطة من واقع العرب في أسفارهم الطويلة الشاقة ، والقافلة حين يرهقها الأعباء تبعث من أفرادها من يهيئ لهم منزلا آمنا طيبا تستريح به قليلاً ، والتصوير هنا متحرك والخيال يصل بين الدنيا والآخرة في قفزة ، والحياة قصة سفر عما قليل تنتهي ، والأولاد فراط يهيئون لآبائهم المكان الكريم بعد سفر الدنيا المضني ودمج الصورة بين سفر مخصوص ، وسفر إنساني عام في إيجاز معجز ، وإيحاء لا ينتهي مداه ومن هنا كان الصدق والخلود .

ويأتي الحديث الثاني يكمل الأول فلابد مع الجنة من الأمن من دخول النار والصورة أدخل في الآخرة من سابقتها ، فأحداثها هناك حيث الأولاد ، وحيث الامتناع المؤكد من النار كهذا الاحتظار الذي يقام على ساحة ليكون سدا وحجابا يقي الداخل من تسرب إلى الخارج ، والخارج من تسلسل أو دفع إلى الداخل ، والاستعارة هنا تمثيلية لأن ثمة هيئة دنيوية معروفة ، نقلت إلى هيئة وأحداث أخروية متخيلة تقوية وتأكيدا ، وكون الاستعارة تمثيلية ، لجريانها في هيئة ؛ ولذا نرفض من جعلها تبعية في الفعل احتظرت[1] ، لعدم دقته في الوفاء بجملة الصورة .

---

(١) انظر : المجازات النبوية وتعليق المحقق طه الزيني هامش ٣ ص ٩٣ .

الجهاد : قال رسول الله ﷺ :

١- «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو ، فصدق الله تعالى حتى قتل ، وذلك الذي يرفع الناس أعينهم إليه يوم القيامة هكذا ، ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوته قال فما أدرى قلنسوة عمر أراد أم قلنسوة النبي ﷺ ، ورجل مؤمن جيد الإيمان لقى العدو فكأنما ضرب جلده بشوك طلح من الجبن أتاه سهم غرب فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل خلط عملاً صالحا وآخر سيئًا لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة»[1].

٢- «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها»[2].

٣- «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم»[3].

والحديث الأول يبين مراتب الشهداء وقد اشتمل على عدد من الصور البيانية نجلوها :

١- تصوير القتال الشديد والنضال المرير المنبعث عن عزيمة قوية : بالصدق في القول المطابق لأحداث الواقع وتعليق الصدق بالله توضيح لمدى الإخلاص في القتال لأنه صدق من يعلم خفايا القلوب (استعارة تبعية).

٢- في «خلط عملا صالحا وآخر سيئا» استعارة خلط الأعمال صالحها وسيئها لفعلهما معا ، وسر الاستعارة هنا : قوة إظهار العمل ومدى اختلاطه لأن الخلط لا يكون إلا في سائل يمزج تنفيرا من الجمع في العمل والقول غير متكافئين وكأن الشر يوشك أن يتغلب .

---

(١) التاج الجامع ٣٣٢/٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٨ هامش ٢ ، ورياض الصالحين ص ١٩٧ والهيعة الضجة وأصلها من هاع : جبن ، المطول ص ٣٦٥ .

(٣) التاج الجامع ٣٤٩/٤ .

٣- «أسرف على نفسه» استعار الإسراف فيما لا فائدة كالطعام والشراب والمال وهو تجاوز الحد فيها للإكثار من السيئات ، دلالة على التناهي في فعل المعاصي تقبيحًا لما اقترف ؛ لأن الإسراف مكروه في الطباع والإسراف في الإثم أشد وأقبح ، وهذا مع ما سبقه يكشف عن أثر السلوك الإنساني في تقويم الشهداء يوم القيامة .

والثاني : «فيه نوع من الناس هو خيرهم» ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها ، والاستعارة تبعية في «طار» وهي قريبة عند البلاغيين لأن الطرفين الطيران والعدو من جنس واحد هو السرعة وإن اختلفا ، والقرب يوجد عندهم من قوة البلاغة في الاستعارة[1] ، والواقع أن المعالجة الجزئية هذه هي السيئة الكبرى في تراث نقادنا الأقدمين ، فهم لم يفطنوا إلى ما وفره الأسلوب كله لهذه الاستعارة من بهاء ، فالرجل ملازم لفرسه بل ممسك بعنانه كأن آماله وهمومه قد انحصرت في الجهاد ـ والخيال يتمثله واقفًا لا يريم بيده لجام فرسه ، وجاءت كلما الشرطية بمدخولها توضح أنه متوفر متحفز مشدود الأعصاب ما إن يسمع صيحة مفزعة تخلع القلوب حتى يندفع مهاجما ، إنه لا يتحرك وئيدا وإنما ينطلق طائرًا لا يصمده خوف ولا جزع ، وهذه السرعة في هذا المقام أدل على الصدق الفني والجرأة الكاملة من التورط في مبالغة لا أساس لها ، فالفعل «طار» هو الأبلغ في مكانه والاستعارة هنا أبرع ولا يمكن أن يؤدي عنها بديل .

أما الخيل كحيوان كان له أثره الخطير في المعارك الإسلامية فالدعوة إليه تستحق هذه العناية ، والاستعارة هنا تبعية صورت لزوم الخير المفسر بالأجر والغنيمة بعقدة في نواصيها ، والبراعة واضحة في مكونات الصورة فثمة مجموعة من الشعر طويلة على ناصية الفرس يمكن أن يعقد فيها شيء ، ثم إن

---

(١) انظر : أسرار البلاغة ص ٣٨ ، والمطول ص ٣٦٥ .

الناصية في المقدمة المتحكمة في جسم الفرس كرا وفرا ، لا جرم أن الخير المجهول يصور بمحسوس تحتويه العين ولا يمله الخيال .

الرحمة والتراحم والخوف : قال رسول الله ﷺ :

« حبك الشيء يعمي ويصم »[1].

« إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبه قال فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض »[2] ، وورد هذا الحديث بتوسع وفي نهايته ، « ثم يوضع له القبول في أهل الأرض » وزاد في الذي يبغض الله « وثم توضع البغضاء في أهل الأرض »[3].

« ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[4].

« جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ، فقال النبي ﷺ أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة »[5].

« جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه »[6].

« من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة »[7].

« يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا إن لك رحما سأبلها ببلالها »[8].

---

(١) التاج الجامع ٥/٨٤ .
(٢) المرجع السابق ٤/١٧٦ .
(٣) المرجع السابق ٥/١٧٩ .
(٤،٥) المرجع السابق ٥/٧٥ .
(٦) المرجع السابق ٥/١٥٦ .
(٧) المرجع السابق ٥/١١٠ .
(٨) المرجع السابق ٤/١٩٦ .

وهذه الأحاديث تدور حول عواطف شعورية الحب والرحمة وصلة الأرحام والحديث الأول «حبك الشيء يعمي ويصم» من جوامع الكلم لأنه يعبر بصدق وإيجاز عن عاطفة الحب إذا ثارت، وأثرها بما هو مطبوع في الغرائز جبلة في الإنسان فقد صور هنا تغاضي الحب عن عيوب من يحب أو ما يحب وزلات لسانه: بالعمى والصمم في عدم التأثر، على سبيل الاستعارة التبعية، ولقد كان التعبير بالعمى والصمم يفقد قوتي الإبصار والسمع خير مؤكد لأثر الحب على المرء وضربه صفحا عن زلات الحبيب وكان أبلغ من قول الشاعر وهو ما يتمثل به.

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

والفارق بين الحديث والبيت كالفارق بين النبي ﷺ وبين سواه فالشاعر يجعل عين الرضا لا تكاد تبصر، والحديث يجعل المحب أعمى بالكلية حتى لا يتأثر إطلاقا بما يراه الناس عيبًا، ولكن للحس منفذا آخر أشد خطرًا لم يتعرض له البيت بينما أعلنه الحديث أيضا دلالة سلب الإرادة واللب وقد غلبه الهوى فانقاد رغما عنه لا يسمع ولا يبصر شيئا، أما الشطر الثاني فهو مفهوم الأول ولم يأت بجديد في قضية الحب.

أما محبة الناس للإنسان أثرا لطاعته ربه، وحسن معاملته لعباده بمعنى تعلق القلوب به وميلها إليه فقد صور الحديث إيجادها في القلوب بإنزالها إلى الأرض ووضعها في الصدور، والمحبة شعور إنساني لا توصف بالنزول والوضع لكن البلاغة النبوية جسمتها كما جسمت البغضاء قوة في تأكيد المعنى وتثبيت الغرض من الدعوة إلى طاعة الله تعالى.

والرحمة، وهي شعور رقيق آخر يجسده البيان النبوي تصويرا وتأكيدا فهي تغشي الذاكرين الله، كالماء يعمهم من كل ناحية، وهي تنزع - في حديث الأعرابي - وكأنها محسوس يقبض عليه، ونلاحظ هنا مفارقة لطيفة - ففي إيجاد الرحمة عبر بالغشيان وهو لفظ قوي مميز، وفي إذهابها عبر بالنزع بما فيه من معنى الشد والسحب، والأخذ بقوة، ليوفر للمجاز حيويته وجدته.

والرحمة مجموع أو كل محسوس له أجزاء ، ولقد لعبت الاستعارة التخييلية هنا دورًا لتأكيد المعنى المراد ، هو أن الله أرحم بعبيده من عبده في الدنيا والآخرة .

وتصوير الرحمة بكل ذي أجزاء تم تقسيم هذه الأجزاء ، وإنزال جزء واحد بين الخلائق ـ وإمساك الباقي عنده جلا وعلا ثم وصف الدابة بالخشية والخوف من إصابة ولدها تصويرا لها بالعاقل ، هذه الروح التي تفوح في الحديث كله لتأكيد الغرض . وإنما كانت الاستعارة في الفعل غشى لتعميم الرحمة مناسبة للذكر ودعوة إليه ، فإننا نجد لفظا أقوى اقتضاه المقام فاختلف وجه الاستعارة في الحديث ، « لن ينجو أحد منكم بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »[(1)].

ونلاحظ هنا من أسرار التعبير : أن رحمة الذاكرين في المسجد تعمهم وهم جلوس وهذا في الدنيا ، أما النجاة في الآخرة فهي مطلب عسر ، فالرحمة هنا للرسول ﷺ يساندها الفضل ، وهي رحمة لا تقتصر على التغطية وإنما تترقى إلى التغمد بما فيه من إحاطة تامة ، وهى ملازمة مستمرة لا تنفك ملازمة الغمد للسيف ، لذا كانت قوة الصورة بقوة التجسيد ، دلالة على شدة الحاجة وضعف الحيلة ، وقوة الرحمة وبيان المنزلة المحمدية تأكيدا للغرض العام وهو أن الفضل بيد الله .

وقد اقتصر الرضي على بيان الاستعارة دون إيماء إلى ما ذكرنا قال « وأصل هذا الكلام مستعار لأن المراد به إلا أن يغطيني أو يجللني منه برحمة مأخوذ من غمد السيف الذي يكون كنانا وسباغا عليه »[(2)].

وصلة الأرحام ضرب من الرحمة خاص بذوي القربى والحديث « إن لك رحما سأبلها ببلالها » وهي من الاستعارات التبعية المنتزعة من الواقع العربي ، فالوعاء من الجلد قد ييبس ويتشقق من شدة الحرارة في بيئته الصحراوية ،

---

(١) التاج الجامع : ٥/١٤-١٠٢ .

(٢) المجازات النبوية ص ١١٧ .

فيبل بالماء إزالة ليبسه ، وإصلاحا لما تخدد منه ، ولما كان يوم القيامة تشيب له الولدان كانت للشفاعة إنفاذا ، كالماء لا ينصلح الوعاء إلا به ، وهذا التجسيم لرحمة ذوي القربى لم يقتصر على التأكيد والمبالغة ، وإنما جمعت الصورة الواقع الحاضر والغائب البعيد ، وحشدت من الشعور ألوانا من المتضادات الرحمة بعد عذاب والغوث بعد اليأس ـ والفرحة بعد ترحة ، والحياة بعد ما يودي إلى الهلاك .

ولقد روى الرضي هذا الحديث على وجه آخر «بلو أرحامكم ولو بالسلام» والأول أشمل في صلة الرحم دنيا وأخرى قال «المراد صلوا أرحاكم ولو بالسلام أي جددوا المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالتسليم عليهم تشبيهًا ببل السقاء اليابس ؛ لأنه لا يتبلل إلا بملء الماء فيتندى قاحله ، ويتمدد قابضه فشبهوا بل الأرحام بذلك ؛ لأن في حسن المخلقة تجديدا لمخلقتها ، وإحكاما لما وهن من علائقتها[1] ، ونزيد على ذلك ما صور الحديث من أهمية هذه الصلة وشدة الحاجة إليها وعدم استقامة الحياة إلا بها كهذا الإناء المتشقق لو ترك لعدم ولكن الماء يصلحه ويرجعه إلى سيرته الأولى .

تقوية روح الجماعة : قال رسول الله ﷺ :

«المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»[2].

«ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بالنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة»[3].

«إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب»[4].

---

(١) المجازات النبوية ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) التاج الجامع ١٨/٥ .

(٣) المرجع السابق ٤٨/٣ .

(٤) المرجع السابق ٢٩/٥ .

وهذه الأحاديث تدعم الجماعة بالدعوة إلى خلق ينبغي أن يكون ، أو بالتنفير من صفات تفتت من عضدها وتضعف روحها .

والحديث الأول : اعتمد المكنية لتقرير الحالة المثالية فهنا رجل واحد هو المجتمع المؤمن إن أصاب عضوا منه أذى تألم الجسد كله ، ولبيان أهمية الفرد ودوره ودور المجتمع في حياته نراه اختار أشرف الأعضاء «العين والرأس» رمزا للفرد وإيماء إلى أن كل فرد عين أو رأس ، ثم إن هذه العين أو الرأس يمنحها المجاز إرادة وحياة ، فتشتكي تصويرا لحريتها الذاتية ، ومع إبراز هذا الاستقلال في الشكوى نجد التجاوب والاندماج بين الجزء والكل ، وتقوية لهذه الوحدة يأتي الحديث التالي إلى قيادة المجتمع فينتقي نوعا من الحكام لا يسهم في تقوية هذه الوحدة زاجرا متوعدا .

وقد جاءت الاستعارة التبعية هنا فريدة في أسرارها ، فقد استعار إحاطة شيء بآخر دلالة الحفظ والرعاية لبذل النصحية والإخلاص للأمة ، وتفهم هنا صفات الحاكم فهو عبد نافذ البصيرة ، ملم بشؤون الناس ، إنهم أمانة يسأل عنها ، كهذا الشيء الثمين من الأمانات تحاط وتلف وتحفظ من كل تلف ، ولقد أحاط الحديث بألفاظ معدودة بفلسفة الحب والعدل في الشعوب .

أما الحديثان الباقيان فيعالجان مرضين نفسيين يؤثران في وحدة الجماعة فالإفساد بين الناس خطير على الدين بل يذهبه من أصله ، كالحلق يأتي على الشعر كله ، والخيال يتابع الحركة الدائبة في انبهار .

والحسد يجلوه البيان بحيوان مفترس يطعم غريب الطعام إنه الحسنات ، وطريقة الأكل ، ونوع المطعوم وتجسيد هذا الداء الاجتماعي يوفر للصورة جوها من إثارة وتنفير ولقد كانت غرابة المفعول في الفعلين «يحلق» يأكل «وأنه معنوي قلبي مما منح التصوير قوة ذاتية مؤكدة للغرض».

النساء :

وقد دارت الاستعارة النبوية حول أمور للنساء ترشد أو تحذر برفق أو تتوعد بحزم مكين .

١- قال ﷺ لأنجشة : «رويدك رفقا بالقوارير»[(١)].

٢- قال ﷺ لأسامة وقد كساه قبطية فكساها امرأته فقال : «أخاف أن تصف حجم عظامها»[(٢)].

٣- «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها ، ولتنكح فإنما لها ما قد لها»[(٣)].

٤- «ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى»[(٤)].

٥- «قام رسول ﷺ من معتكفه ليوصل صفية بنت حيي رضي الله عنها فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال عليه الصلاة والسلام : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي قالا سبحان الله يا رسول الله ، قال : إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا أو قال شرا»[(٥)].

والأول : فيه استعارة تصريحية عن النساء بالقوارير تفننا وإبداعا ودعوة إلى الرفق والرحمة .

والثاني : دعوى إلى ستر المرأة بلبس الفضفاض من الثياب لأنها فتنة لا يؤمن شرها ، وقد جاء الحديث في فنه متفردا ، قال الرضي : «وهذه استعارة والمراد أن القبطية برقتها تلصق بالجسم فتبين حجم الثديين والرادفتين وما يشذ من لحم العضدين والفخذين ، فيعرف الناس إليها مقادير هذه الأعضاء ، حتى تكون كالظاهرة للحظة ، والممكنة للمسة ، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه الحال كالواصفة لما خلفها والخبرة عما استتر بها وهذه

---

(١) التاج الجامع : ٢٧٩/٥ .

(٢) أورده الشريف في المجازات ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، والرافعي في وحي القلم ٢٣/٢ ، واعتمده الشيخ ناصر الألباني في هامش الحديث النبوي الصباغ ص ٧١ .

(٣،٤) التاج الجامع ٣٣٧/٢ .

(٥) المرجع السابق ١٠٢/٢ .

من أحسن العبارات عن هذا المعنى ، وهذا المعنى روى عمر بن الخطاب في قوله : إياكم ولبس القباطي فإنها إلا تشف تصف ، فكان رسول الله ﷺ وآله أبا عذر هذا المعنى ، ومن تبعه فإنما سلك نهجه وطلع فجه»[1].

ولقد بين الشريف الاستعارة وحللها ، وإن لم يوضح كل أسرارها ، كما أنه ذكر قول عمر ولم يوازن بينهما بما يجلو بلاغة النبوة ، ولقد وفق الرافعي إلى ذلك فقال : إنه عليه الصلاة والسلام لم يقل أخاف أن تصف حجم أعضائها بل قال حجم عظامها من أن المراد لحم الأعضاء في حجمه وتكوينه ، وذلك منتهى السمو بالأدب ، إذ ذكر (أعضاء المرأة) في هذا السياق - وبهذا المعرض هو في الأدب الكامل أشبه بالرفث ، ولفظة الأعضاء تحت الثوب الرقيق الأبيض تنبه إلى صور ذهنية كثيرة هي التي عدها الرضي في شرحه ، وهي تومئ إلى صور أخرى من ورائها ، فتنزه النبي ﷺ عن كل ذلك ، وضرب الحجاب اللغوي على هذه المعاني السافرة ، وجاء بكلمة العظام لأنها اللفظة الطبيعية المبرأة من كل نزعة ، لا تقبل أن تلتوي ، ولا تثير معنىً ، ولا تحمل غرضا ، إذ تكون في الحي والميت بل هي بهذا أخص ، وفي الجميل والقبيح بل هي هنا أليق ، وفي الشباب والهرم ، بل في هذا أوضح ، والأعضاء لا تقوم إلا بالعظام ، فالمجاز على ما ترى والحقيقة هي ما علمت[2] ، ذلك وغيره يبين الدقة المحسوبة في اختيار الألفاظ التي تحرر المعاني بميزان دقيق ثم تفيض من معانيها الثانوية وظلالها البعيدة المديدة كل طريف وجميل .

وأشد من هذا تنفيرا هو ما تقوم به إحدى النساء من الكيد لإفساد أسرة وتطليق زوجة لتأخذ مكانها ، وقد صورتها الاستعارة التمثيلية بهيئة لا تسر ، إنها لامرأة نهمة أقدمت على آنية من طعام لامرأة غيرها ، فأفرغت ما فيها في إنائها جشعا وتبجحا ، وللتعبير هنا أسراره : فللطعام لذة وعليه تقوم الحياة

---

(١) المجازات النبوية ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) وحي القلم ، الرافعي ٣/٢٣ .

إيماء إلى أثر التدمير لحياة الأسر ، واستفراغ الصحفة والإتيان عليها حرمان للزوجة من حق الحياة ، مع ما في الاستفراغ من بشاعة وتسفل ، ولما كان للمرأة رجل واحد كان لها عصمة وحياة زوجية كالصحفة يشاركها الزوج فيها ، وهي خاصة بها فاستفراغها بتطليقها تعد على أقدس الحقوق ، وأخصها ، وتهاون بمشاعر الناس وسعادتهم ، وكفى بهذا تنفيرا زاجرا .

ومن تخلع ثوبها في غير بيتها كناية عن التحلل من القيم والسفور إنما تأتي عظيما ، إنها تغضب ربها . وقد صور عدم حيائها وبذاءتها وإزالتها ما يشدها ، بهتك ما بينها وبين الله تعالى من رضا ورحمة ، وقد ورد حديث بشأن من يجاهر بالمعصية وقد فعلها ليلا فستره الله ثم يصبح «يكشف ستر الله عنه»(١). ونلاحظ هنا تناسب الألفاظ بما تؤديه من استعارات للغرض ، فالمجاهرة كشف لستر الله ، وهو جرم قبيح لكن أقبح منه من تخلع ثوبها في غير بيتها لإثارة المفسدة ، ولذا جاء اللفظ المناسب وفي صورة الماضي «هتكت» بينما جاء الأول في صيغة «الكشف» في حال المضارع ، وهذا من دقائق البيان .

وحديث صفية رضي الله عنها وخوف الرسول ﷺ من هاجس الشيطان في نفس البشر ، فيصور ذلك بقذف شيء ذي ثقل ، وتلمح هنا تجسيم الشر حتى يقذف ، والمدهش أن القلب ليس مجالاً لقذف المحسوس ، تنفيرا من سوء الظن .

الإنسان والقدر :

١- خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا ، وخط خطا في الوسط ، وخط خططا صغارا إلى جانب الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال : «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به ، وقد أحاط به ، وهذا الذي هو خارج أمله ، وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطاه هذا نهشه هذا»(٢).

(١،٢) التاج الجامع ١٦٩/٥ .

«إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب ثقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2].

«من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة»[3].

هذه الأحاديث تثير التأمل والتفكير في شؤون الإنسان وضعفه إزاء الأقدار وتخبطه في أحداث الحياة .

أما موقف المرء من القدر فقد عالجه حديثان ، الأول محيط بالإنسان يحلل آماله وأقداره ، وحظه من مصائب الحياة ، ونجد هذا التصوير النابض عن الأعراض «إن أخطأه هذا نهشه هذا» يقول الرضي : «شبهها عليه الصلاة والسلام بالحيات الناهشة ، والذوبان الناهشة لأخذها من لحم الإنسان ودمه ، وتأثيرها في نفسه وجسمه»[4].

وهي استعارة مكنية تبث الحياة والحركة العنيفة في الأعراض ، ونرى هنا اختيار النهش وما يوحيه من فزع وكراهية المصائب والحيات على السواء ، فالإنسان ضحية لا يملك لنفسه أمرا ، والإتيان بالصورة في أسلوب الشرط فيه شبه تضاد بين الفعلين «أخطأ ونهش» وكأن الإنسان هم الأعراض الشاغل ، وهو لا يكاد يفلت منها ، فإن أخطأ البعض أصاب الآخر وكانت الإصابة قاتلة .

والحديث الثاني مواساة للمرء وحث على التفويض إلى الله ، وبث الشجاعة في كيانه وهدم الأسى على ما فات «لو تفتح عمل الشيطان» وهو مجاز يجسد

---

(١) التاج الجامع ٢٧٩/٤ .
(٢) المرجع السابق ٢٨٤/٤ .
(٣) المرجع السابق ٢٠٤/٥ .
(٤) المجازات النبوية : ص ١٢٣ .

المعنوي المتوهم ، ويختار صورة وإن كانت تحدث دائما من فتح الأبواب وإغلاقها لكن البراعة أنها أبعد ما تكون ذهنا عن المعنى الحقيقي ، فقد صور عمل الشيطان بباب موصل إلى أخطار وأهوال من صنع الشيطان وأوقع الفتح عليه تخييلا وجعل «لو» اللفظة الضئيلة رمزا لشعور الأسف النفسي : مفتاحا ضخما تراه العيون ، وأسند الفتح إليه تخييلا أيضًا ، فكأن هنا استعارتين تخييليتين بقرينة واحدة ، ويزيد العبارة براعة صدقها في اكتشاف أعماق الإنسان ، وتجسيد أثر هذا الخلق بما يجره من آلام نفسية لا تطاق .

والحديث الثاني : مثل في جانب الخير في صورة متحركة لها رصيدها في الوجدان الإنساني ، فهنا قصة سفر تبدأ بالخوف من التأخير ، ثم الإدلاج وركوب الصعب في سبيل الأمن ، ثم بلوغ المنزل والأمن الفعلي على السواء ، إنها إيجاز في كلمات لحياة المؤمن طرفاها الدنيا والآخرة ، ورمز للسفر الإنساني الغريب ، وخوف المسلم من الذنوب والعقاب ، وصبره على الطاعات ، وأداء رسالته وجدية عمله بموت بل يواصل انتصاراته حتى يدخل الجنة .

أما توارد الخير والشر وأثرهما في نفس المؤمن فقد قام به الحديث بعد ، ولا بأس أن يكون الحديث تفسيرا للآية بعده ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ لكننا نلمح في هذا التفسير عملية تكوين الرين ، فقد صور الحديث على سبيل التصريحية أثر الذنب في منع الخير النكتة السوداء في القلب ، ونلاحظ هنا ما يحمله التصوير من تنفير ، فهناك نكتة لونها أسود مخالف للون القلب الأحمر ، ثم هي في القلب نبع الحياة وهذا كاف في الزجر ، وتأتي التمثيلية لتأخذ بخناق الخيال والشعور ، فالنكت السوداء تتكاثر وتزيد وتتجسم متماسكة سوداء اللون تعلو القلب ، وتطفو فوقه ، والقلب عضو خاص ليس فيه علو ولا سفل أو نكت أو تغطية ، بل بيان لأثر الذنوب في غلظة القلب وهبوط الروح والمنع من الإيمان وبين التصريحية والتمثيلية تشرق استعارة ثالثة بياض القلب لصفائه وإقباله على الله ، وتفرض الصور المتباينة نفسها على العقل والحس والخيال فلا تملك إلا اقتناعا وتأثرا وذهولا ، ويزداد

ذلك إذا لاحظنا أن القلب بالذات كان مكانا لهذه العمليات من سواد وبياض ، وتسويد متماسك متحرك إلى أعلى يعلو القلب ، وحشد هذه الألوان مع لونه الثاني يجعل لهذه الصورة المرسومة بدقة إشعاعات وجدانية لا تحد في نفوس المتلقين .

ولا بأس أن نقدم هذا الحديث لعلاقته بما سبق .

قال رسول الله ﷺ : «ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله وباب يترك منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه»(١).

وهو امتداد للتأمل في قضية الإنسان فقد أثبت للعمل والرزق بابين مختلفين ثم ملأ الحديث حركة ونشاطا فالعمل أصبح ذا ثقل يرفع ، والرزق مادة تهبط والحركة دائبة بين تصعد وتصوب والإنسان بلغ من الأهمية ما جعله يشغل الأرض والسماء ثم فجأة تتوقف الحركة ، ولا يبقى إلا حركة صامتة لا تبين «بكاء البابين عليه» وقد لاحظنا تصاعد التخييل والأحداث حتى وصلت إلى النهاية بموت المؤمن ، وهنا نجد الموقف حزينا شاغلا مصورا من البابين عاقلين يبكيان .

ومثل هذا الحديث الشفاف ما ذكره الإمام الزمخشري رحمه الله عن رسول الله ﷺ «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» ثم قال «وذلك على سبيل التمثيل والتخييل»(٢).

والحديث في موت الغربة ، وما يوحيه من شعور شاحب عميق الأثر ، كما نلاحظ أن قوة المكنية التخييلية في الحديثين بجعلها بابي العمل والرزق والسماء والأرض يبلغ بها التأثر والحزن موقف البكاء قد صدقت في تصوير هذا الجو ببراعة ، والفن الخالص والمشاركة الوجدانية ـ بعيدا عن الترغيب والترهيب ـ قد كانا وراء الحديث الأخير لتقديم نمط من الناس يموت عن أهله غريبا .

(١) التاج الجامع ٢٣٠/٤ .

(٢) انظر : الكشاف ٢١٨/٤ ، ٢١٩ .

جوانب من الترهيب والتحذير :

١- الضحك والغناء : قال رسول الله ﷺ :

« ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب »[١].

« إن الغناء ينبت النفاق في القلب »[٢].

والغناء وكثرة الضحك سلوكان أحدهما مؤثر شعوري، والثاني نتيجة مؤثر ، وهما معا برهان الغفلة ، ودليل الامتزاج بعبث الحياة دون ثمرة أو خير ، والاستعارة فيهما تبعية ، والغرابة أن إحداهما من وادي الموت ، والأخرى من عالم الحياة والزرع ، ويتفقان في التنفير ، وفي أن القلب مسرح لهما ، وفي الأولى تصوير قسوة القلب من كثرة الضحك وابتعاده عن ذكر الله بإماتته ، والعجيب أن يقع الموت المخصوص على جزء من كل ، وأن يكون هذا الجزء منبع الحياة ، وإنه لمدهش أن يتصور الخيال حيا يسير بقلب ميت أو بلا قلب ، وهو دهش ممزوج بالخوف والرهبة من آثار الضحك الكثير ، وفي الثانية تجسيد واضح فإيجاد النفاق وهو شعور لا نبات له ، وتصور عملية الزرع في هذا الموطن « القلب » وأن المزروع خبيث غير بهيج يهز الوجدان ويثير النفار من الغناء الداعي إلى الرفث المبعد عن ذكر الله ، ولا يخفى ما في الأول من جمع الضحك والموت والثاني من الملائمة بين الغناء دليل البهجة والإنبات دقة في التعبير والبيان .

٢- الكبر ـ جرائم اللسان ـ النفاق :

قال رسول الله ﷺ : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال »[٣].

---

(١) التاج الجامع ١٦٧/٥ .

(٢) المرجع السابق ٢٨٦/٥ .

(٣) المرجع السابق ٣٣/٥ .

من حديث معاذ : «وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

٣- قال رسول الله ﷺ : «من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان في النار»[2].

والكبر ، وفساد القول ، والنفاق سبب البلاء في الناس ، لذا كانت المجازاة عليها بالنار يوم القيامة .

والحديث الأول يلتقط مشهدا مفزعا يتصاغر له الخيال ، ويسجد له الفن فالمتكبر الضخم السمين مع أمثاله يصغرون ويتصاغرون من الذل حتى يكونوا مثل النمل الصغير في صور الرجال ، فالرجل في صورة نملة تافهة ، إن الوجدان لا يجرؤ على السخرية من الرعب ، ها هو ذا الذل وانكسار النفس والانخذال والضعف يتجسد يوم القيامة ماء يغشاهم ويحيط بهم وهم فيه غارقون ، وكان من الممكن أن تكون الاستعارة تبعية في الفعل «يغشى» لكن الجو العام للإذلال والتحقير يرشح جعلها مكنية مبالغة في الإذلال إلى ما يناسب حقيقة أغرب من الخيال ، ومثله في الكناية - الحديث : «يأتي الرجل السمين العظيم يوم القيام لا يزيد عند الله جناح بعوضة».

وفي النفاق تتضح براعة التصريحية ، وهي متخيلة ، بمعنى أنها تجمع شتات الصورة غير الواقعية من أجزاء في الواقع تزيد الوجدان غرابة ، فقد صور رأيي المنافق المختلفين بالوجهين في رأسه وليكن الآخر في قفاه ، ولما كان المنافق يفجأ قوما برأي يوافق آراءهم صار كالوجه ؛ لأنه أول ما يطالع المرء فإذا لجأ إلى معارضين أدار الوجه الآخر بملامح أخرى غريبة ، أما الجزاء فهو أغرب لمن له في الدنيا لسانا يعبر عن نفاقه فليكن له لسانان من نار ، ذلك بأن رأيه تنوع إلى مذهبين على لسانه الكاذب ، وهذه إحدى جرائم اللسان التي يعالجها الحديث التالي بعمومية «حصائد ألسنتهم» ولا بأس أن نورد هنا رأي

---

(١) التاج الجامع ٢/٥٠ .

(٢) المرجع السابق ٥/٢٤ .

الرضي قال : «شبه ما تحذف به ألسنتهم عن الأقوال المذمومة التي تسوء عواقبها ، ويعود عليهم وبالها بالزارع الذي يستوبيء عاقبة زرعه والفارس الذي يستمر ثمرة غرسه ، وهذا كقول القائل لمن أخذ بجريرة ، وعوقب على جريمة : احصد ما زرعت واستوف أجر ما غرست[1].

وغرضه : الاستعارة التمثيلية من حسن المبتدأ وسوء المنقلب وفيه اضطراب لأن الكب على الوجه أو المناخر حقيقة ، وألسنتهم في « حصائد ألسنتهم» فلم يبق إلا جعلها مكنية تخييلية ، والتصوير هنا مكبر موضح فالألسنة مناجل تحصد الزرع وإضافة الحصائد تخييل على أن هذه القرينة نفسها « حصائد» معارة لآثار اللسان من إفك وبهتان ، وإفساد ، والخيال يعجب بهذه المناسبة في الأثر ، والشكل بين اللسان والمنجل ، وتخييل الحركة من سلاح باتر مستمر في قصف الحصاد ولسان لا يمل الحديث الآثم ، وقد قدم الجزاء بالكب في النار على الوجوه تخويفا ثم تشويقا إلى سببه الذي قصر عليه سبب العذاب ترهيبا ووعيدا .

المجازات في الغيبيات :

١- تجديد الدين . ٢- الفتن . ٣- علامات الساعة .

قال رسول الله ﷺ : «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجورا»[2].

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »[3].

لعثمان رضي الله عنه « يا عثمان إنه لعل الله يقمصك قميصًا فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم»[4].

---

(١) انظر : المجازات النبوية ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) التاج الجامع ٣٤٣/٥ .

(٣) المرجع السابق ٤٠٨/٣ .

(٤) المرجع السابق ٣٢٩/٣ .

«بادر بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنًا ، ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1].

عن الفتن «ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة»[2].

«توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ، قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال سائل : يا رسول الله وما الوهن قال : حب الدنيا وكراهية الموت»[3].

«يأتي المسيح (الدجال) من قبل المشرق حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام ، وهنالك يهلك»[4].

«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم»[5].

والغيبيات تتنوع ثلاث فكر : تجديد الدين ـ الفتن ـ لمحة من يوم الدين ، وقد ورد حديثان حول الأولى : يصوران عدالة المهدى المنتظر ، ومن يرجع إلى الدين قوته ، وقد اعتمد الاستعارة التبعية ، فالمهدي ينشر العدل في جنبات الأرض وهذا معنوى جسد بملء إناء سائلا معينا بعد تفريغه من آخر تأكيدا لانتشار تامٍ لعدل المهدي بعد شيوع كاثر لظلم عظيم ، وتبادل الملء يعطي حركة تقوي الصورة وتؤكد مضمون الخبر .

والحديث الثاني يصور تنفيذ تعاليم الدين والقضاء على البدع بتجديد شيء كان قد خلق دليلا على قوة التجديد وتصويرا نابضا لجهود مباركة .

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٠١ .
(٢) المرجع السابق ٥/٣٠٦ .
(٣) المرجع السابق ٥/٣٢٧ .
(٤،٥) المرجع السابق ٢/١٨٥ .

علامات الساعة والفتن :

ونبدأ بحديث عثمان ﷺ ، وقد كانت رؤية النبي ﷺ لمحة من عالم الغيب لم يفسرها إلا الزمان ، وقد صور تقدير الله الخلافة لعثمان بإلباسه قميصا سابغا في الاحتواء والستر إبرازًا للمعنوى الغيبي بالمنظور تأكيدا وتقريراً .

وقد ترى أثر الفتن على الإيمان فهناك من « يبيع دينه بعرض الدنيا » ، فقد بلغ من عدم الاحتفاء بالدين أن يكون سلعة يبادل عليها بتافه من الأعراض إنه تصوير حزين يملأ النفوس ألما .

وهناك فتن لا تدع أحدا إلا أثرت فيه بسوء ، وقد صورها الحديث باللطم على الخد واللطم المؤكد ، وما فيه من إهانة وتحقير يوضح تهافت الناس على الشر وفرض الفتن نفسها على الناس .

ثم إن الناس مهيئون نفسيًا لهذه الفتن فهناك الطمع الخارجي وضعف القيم الداخلية ، وقد بين الحديث ما يئول إليه أمر الناس من جراءة العدو عليهم ثم قذف الوهن في قلوب الناس ، وقد صدر كلا بالقسم مع التأكيد بالنون ودقة التصوير دلالة على أنه واقع ليس له دافع ، والبراعة هنا في المقابلة بين النزع بمعنى الإزالة ، والسلب ، وبين القذف بمعنى الإيجاد الأول فيه أخذ بشدة مسرعة ، والثاني فيه إلقاء بعنف وغضب وفي كليهما تجسيم لحالة شعورية دلالة على مقت الله وترسيبا للمعنى في الحس والذهن - ومن الفتن نزول الدجال بطرف أحد وقد صور أحدا بالبعير على عادتهم في التمثيل الكنائي به دلالة على منع الله له من الاقتراب من المدينة .

ومن تصوير المجاز لمشهد من مشاهد الحشر ساعة العرض والشمس مكسورة دانية والناس وجلون والعرق يبلغ أفواههم فكأنه يلجمهم ، فالاستعارة تبعية واللفظة هنا معبرة ، إن الناس مرغمون لا يملكون للعرق دفعا كاللجام يوضع في فم الفرس قهراً لإرادته ، واقتران الحصان ولجامه بيد صاحبه في الخيال يجعل القائد مقودا إظهاراً لبعض جوانب هذا اليوم العسير .

مع النبي ﷺ :

في قصة شق الصدر : قال ﷺ بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان . . . . « فأتيت بطست من ذهب ملأ حكمة وإيمانا فشق من النحر إلى مراق البطن بماء زمزم ملئ حكمة وإيمانا »[1].

قوله ﷺ لمكة : « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ ولولا أن قومك أخرجوني منك ما سكنت غيرك »[2].

نظر رسول الله ﷺ إلى أحد فقال « إن أحدًا جبل يحبنا ونحبه »[3].

« أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديث »[4].

« أمر النبي ﷺ بكبش أقرن يطأ في سواد ، ويبرك في سواد ، وينظر في سواد ، فأتى به ليضحي به »[5].

وهذه المجموعة تنصب على أحداث أو اهتمامات أو انفعالات شخصية للنبي عليه الصلاة والسلام ، وفي قصة شق الصدر نجد الحكمة والإيمان وهما من عالم المعقولات سائلا يملأ هذه الطست ، أو يملأ البطن كله ، وقد يكون ذلك حقيقة جريا على تجسيد المعنويات كما في ليلة الإسراء ولكن العقل البشري وقوى النفس لا يمكنها إلا التخيل لما لا تطيق .

أما مشاعره الذاتية ﷺ نحو أمكنة خاصة فهنا امتداد الوجدان وإشعاعه وهنا التشخيص الذي ينطق الجماد ويحيي الموات ، فهذه مكة المكرمة التي قضى بها ربيع العمر حبيب يناجي بأصدق العبارات « ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ » إنها إنسان يبث النبي حبه وأشواقه ، ولقد طوى المشبه به ، وألقى ما يرمز إليه وهو الخطاب مسبوقا بالتعجب من الطيب والحب تعجبا لا يدرك أسراره سواه ﷺ .

---

(١) التاج الجامع ٣/٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ٢/١٧٣ .

(٣) المرجع السابق ٢/١٨٧ .

(٤) المرجع السابق ٢/١٨١ .

(٥) المرجع السابق ٣/١١٢ .

وهذا التشخيص بالمكنية والتخييلية ، ونقل الانفعالات وامتداد الوجدان إلى الجماد نجده في «أحد» «إن أحدًا جبل يحبنا ونحبه» فعلى سفوحه دارت معارك الإيمان والشرك ، وفي بطنه رفاق الكفاح ، وأحد على مقربة من المدينة بشر يقربها ولقاء الأحبة وقد صور أحدا بإنسان عزيز ثم أسند إليه أقدس شعور وهو الحب تخييلا ، ولذا لا نكاد نفهم صنيع «ابن الأثير» بتقسيم المجاز إلى توسع وتشبيه واستعارة وجعله الحديث من باب التوسع قائلاً : «إضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد»[1] ، وكأن ابن الأثير خفيت عليه أسرار الاستعارة المكنية وما بها من تجسيم ينطق الجماد ويحرك الموات ، على أن هذا التوسع المنفرد في التقسيم متحقق في المجاز بألوانه إذ هو أسلوب للتعبير يثري اللغة ، ويفتح مجالا للقول .

ومن مجاز الأمكنة أيضًا حديث المدينة «أمرت بقرية تأكل القرى» قال الرضي : «المراد أن أهلها يقهرون أهل القرى فيملكون بلادهم ، ويغتنمون أموالهم ، فكأنهم لهذه الأحوال يأكلونهم»[2] ، وواضح تخريجه الأسلوب على التبعية والمجاز المرسل في القرية ، وعندي أن تشبيه القهر والإهلاك والغنيمة بالأكل ليس فيه كبير مبالغة للتقارب بين الطرفين ، والمساس بفنية الصورة ، فالأليق تخريجها على المكنية ـ فالقرية المؤمنة أسد ، والقرى الكافرة سوائم وإسناد الأكل إلى القرية وإيقاعه على القرى تخييل فيهما ، وهو تخييل قوي يوحي بالحركة المستمرة بما يدل عليه المضارع (تأكل) بيانا لدور خالد في هزيمة الكفر ، ولا تخفى الإشادة بالمدينة والفخر برسالتها .

أما الحديث الآخر فهو آية البيان وسر البلاغة فقد سيق للفن وحده دون أي غرض ديني أو دنيوي ، وما كان أيسر أن يقال جيئوا بكبش سود الأظلاف

---

(١) انظر : المثل السائر : ٨٢/٢ .

(٢) المجازات النبوية : ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

والحدقتين والركبتين ، لكنه أتى بهذا التصوير الفذ ، الذي تحولت فيه الألفاظ مدادا لريشة النبوة لترسم منظرا فريدًا لحيوان أليف ويزيد عليه الشكل ذو الطبيعة الخاصة الذي يعدي ما يلامسه من الأرض،ومجال البصر في أي اتجاه.

فأظلافه لسوادها ، وتوقف المشي عليها تنقل السواد ، فتسود مواقعها على الأرض ، وكذا مواضع بروكه ، وحدقته السوداء تبصر على غير ما يعهد الناس فنورها ومجال رؤيتها ، وما تراه كله أسود خلقة عجبا ولكنه واضح أبلج ، والخيال يحار في هذا الشكل الثابت الذي أذابه الحديث وجسمه مادة تنتقل إلى ما يحيط بالكبش من مرئيات ، وهذا الاندماج الكامل وتنقل اللون لا الشعور وتغيير الواقع بقوة التصوير جعل هذا الحديث نسيج وحده في البيان ، والفن ، ومن الهين إجراء التبعية في الثلاثة أفعال «يطأ ويبرك وينظر» والأهم تبيان أسرارها التعبيرية والفنية بما قد كان .

* * *

سمات خاصة

وضح مما سبق كيف أن الاستعارة النبوية عالجت أغراضا للدعوة المحمدية كما أتت لغرض وصفي لا علاقة له بالرسالة وإنما أملاه الفن ، وداعي البلاغة كمشاعر النبي الذاتية من حب لمكة ، وأحد والمدينة وتضرعاته ﷺ لربه جلا وعلا والإخبار عن بعض الفتن آخر الزمان .

ونضيف هنا ـ بإيجاز ـ بعض الملامح الخاصة : التصريف في المادة الواحدة على طريقة الاتساع والتجوز لمناسبة المقامات كمادة «ملأ» فهناك : ملأ الليل بطن كل واد ، وملء الصدر غنى ، والأرض عدلا ، بعد ملئها ظلما ، والطست حكمة وإيمانا ، والمصدر أيضًا ، كما نلاحظ أن المسند إليه قليلا ـ والمفعول به كثيرا : قرينة المجاز لأنه سيال أو معنوي أو شعوري ، ومادة «حيى» نجد «أحيا» واقعة على السنة ، والأرض ، ومسندة إلى الشمس وكذلك «أمات» على السنة ، والأرض ، والبقلتين ، والقلب ، و «الإهلاك» على المال ، والمفعول هنا إما معقول أو جماد لكنه شخص بهذا الإيقاع ، كما نجد «الإطفاء» واقعا على الغضب والخطئية ، «والبيع» واقعا على الدين والنفس .

قد نجد اسما واحدا أسند أو علق بأكثر من فعل مجازي كلفظ الخطيئة أو الخطايا مع الأفعال : مسحا ، خرج ، حط ـ حظت ـ كشف ، غسل ، والرحمة مع الأفعال : تنزل ، توضع ، تعس ـ تغمد ـ نزع ، والإيمان مع «ذاق طعم» و «ذاق حلاوة» وتعدد الأفعال لا يأتي كيفما اتفق بل يخضع لقاعدة هامة في التصوير هي مناسبة الحدث لما استعير له من حالات تتفاوت قوة وضعفا ، وبالتالي تأثيرا وإيحاء نزولا على مقتضيات الأحوال . فغسل الخطايا في مقام التضرع أقوى من حطها ، وأقوى من محوها حسب الأعمال الصالحة وتفاوتها ثوابا منه ، وأثرا ، بل إن طريقة الصياغة للفعل لها أثر في تحديد قوة

الاستعارة حسب المقامات : فهناك : حط خطيئة وتحط خطيئة ، وحطت خطاياه بالبناء للمجهول ، كما أن التغمد الواقع على الرحمة في الرجاء النبوي يوم القيامة أقوى لداعي الحال من «غشيتهم الرحمة» في الذاكرين الله .

والواقع أن كل لفظة معارة في البلاغة النبوية إنما وضعت بدقة محسوبة وفق خطة تصويرية لا يشذ عنها شارد ولا وارد خطة الطبع النافذ البصير فلا يحل لفظة مكان أخرى كما في جوب الليل ، وبطن السماء ، وبطن كل واد ، وكما في : «طبع على القلب» في ترك ثلاث جمع ، وختم في ترك الجماعات بالمرة ، وفي «كشف» واقعا على المغرم والمأثم ، وستر الله لمن يجاهر بما صنع ليلا ، وهتك مسندا لمن تعرف في غير بيتها .

قد نرى الاستعارات تنصب على المعار تقلبه من كل نواحيه وتحيط به من كل جوانبه ، آخذة كل منها جزءا أو طرفا يناسب المقام حتى يستوي منه نموذج كامل كالبعير لأن له ارتباطا ذهنيًا وواقعيا ونفسيا بالعربي ، فالإعارة منه أقوى في تثبيت الصورة والغرض فكان منه : جوف الليل وبطن السماء وظهر البحر ورأس الجبل وكاهل الليل وسرة الشهر ودبر أحد ، كما نجد لمحات من حيوانات أخرى ليس لها هذه الأهمية فهناك الغرة من الخيل والقرن من ذوات القرن وآكلة الخضر وسرب الظباء .

كما نجد استعارات تصور معارا واحدا في صور مختلفة ، فالشمس حية وزائفة ، ولها حاجب ، ولها قرن ، وهكذا . .

قد يجمع الأسلوب بين استعارتين متغايرتين أو متضادتين قوة في التصوير وجذبًا للانتباه وتأكيدا للمعنى كإحياء السنة ، والأرض بعد موتهما ، والسفل والفوق في درجات الناس ، والخفة على اللسان والثقل في الميزان لنوع من ذكر الله ، ورأس الجبل مع بطن الوادي ، والقلب يسود ، وقد يبيض ، وقد يتراكم فيه السواد ويتماسك مكونا غطاء كثيفا ، وقد تكون البراعة في الجمع طباقا بين لفظتين أحدهما معار والآخر على حقيقته ترشيحا للاستعارة وخلابة

في البيان ، نحو يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ، وقلب الشيخ شاب . . . كما قد يكون الفعل المعار واحدا والطباق في متعلقه كحديث المهدي : يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

هناك ألفاظ خصصت بحالات خاصة لم تتجاوزها كالفعل «قذف» خصص بالشر من الصفات كالرعب والذل ، والشر ، والوهن ، كما خص «نزع» بسلب صفات طيبة كالرحمة والمهابة .

ثانيًا : المجاز المرسل

من الألوان البلاغية التي جلاها بيان النبوة ، فجاءت ناصعة عفوية شديدة الإيحاء ، قوية الأثر في إمتاع الخيال ، والوجدان ، وإشباع الحاسة الفنية المتذوقة ، لتأكيد المعنى المسوق له الأسلوب .

ومنهجنا تتبع أمثلة المجاز المرسل في الحديث جهد الطاقة ، وتنويعها حسب العلاقة ، ليمكن اكتشاف أسرار التعبير ، والخصائص العامة في المجاز المرسل ، ومعناه المميز .

العلاقة باعتبار ما يكون :

قال رسول الله ﷺ : ١- «من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من النار ، وفي رواية من جمر جهنم»[(١)].

٢- عن ابن عباس أن النبي ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال : «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده»[(٢)].

٣- «من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارا من جهنم»[(٣)].

٤- «من ينظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار»[(٤)].

---

(١) التاج الجامع ٣١/٢ .

(٢) المرجع السابق ٢١٨/٣.

(٣) المرجع السابق ١٢٧/٣ .

(٤) المرجع السابق ١١٢/٥.

٥- « إذا المسلمان حمل أحدهما على أخيه السلاح فهما على جرف جهنم فإذا قتل أحدهما الآخر دخلاها جميعا »[1].

٦- « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسرا إلى جهنم ».

والحديث الأول يحذر من السؤال مع الغنى ، ونجد قوة التصوير هنا بجعل المال المستكثر منه نارا لأنه يئول إليها في الآخرة ، ويكفي تخيل هذه النار وقت أخذ الصدقة ليفر منها الغني ، وقوة التخييل نجدها في الحديث الثاني زجرا عن استعمال الذهب ، والأسلوب يوفر للترهيب قوته ، فالخاتم جمرة متلهبة يظهرها البيان فيجعل لها صورة الخاتم ، وهذه الجمرة يقصد إليها عن عمد تصويرا للغباء وجهل العاقبة ، ثم هذه الجمرة لا تقتصر على الإصبع وإنما تجعل في اليد بأكملها ، فقد أطلق الجزء وهو الإصبع وأراد اليد كلها قابضة على الجمرة تجسيدا للألم ، وهذان المجازان المرسلان أبلغا في التحذير والترهيب مع ما في تنكير جمرة ونار من تهويل . كما نجد من يشرب في إناء من ذهب نرى الأسلوب يغير الحقيقة إلى صورة متحركة مخيفة تتأجج نيرانها فالسائل إنما هو نيران ذائبة يتجرعها المترف المختال ، وقد أكد استحضار النار بقوله « من جهنم » وتقابل اللفظتين « يجرجر » باستمرارها و « جهنم » بوقعها الخاص يعطي للصورة إيحاءات نارية مخيفة زجرا ورهبًا وبمقارنة الحديثين وهما في الذهب نجد أن جهنم لما كانت تعبر عن الغضب النبوي في انتهاك ما حرم باستعمال الذهب في تناول الأطعمة والأشربة ، وذلك أدل على الثراء والخيلاء من التختم بالذهب جاءت « جهنم » جزاء وفاقًا وتلمح ما يعين على قوة التصوير في الأسلوب بالخطاب (أحدكم) مع كلمة (يعمد) ثم تجسيم النار بجمرة ترى وتحس ثم جعلها في اليد ، فكأن المخاطب قد ساعد في تكوين الصورة بعمده ، وقبضه على الجمر ، وتفاوت الجزاء في الأسلوب بتفاوت الحالة من أسرار البيان النبوي .

---

(١) التاج الجامع ٥/٣٠٢ .

ومن ينظر في كتاب أخيه : تأتي الصورة لتشتمل عليه فهو في النار محيطة به ، وهو فيها معذب حائر ينظر في أنحائها ، وذلك تخويفا وتربية للذوق العام وحفظا لأسرار الناس وحقوقهم .

ونلاحظ هنا أن كلمة « جهنم» معبرة عن الغضب النبوي في مقام ينتهك فيه حق أو عبادة لها حرمتها ، فالمسلمان حين يحملان على بعضهما السلاح يتركان أخوة الدين وهديه جانبا ، ويدخلان إلى الشر والغضب الإلهي ، وتنقلها الصورة إلى جهنم ، فهما حين ينويان الشر على جرف جهنم ، وجهنم تتوثب بنارها وجرفها توشك أن تتداعى بهما ، وتمر الصورة رابطة بين أحداث الدنيا والآخرة في ومضة ، إنهما بحملهما السلاح يقتربان من جهنم ، فإذا قتل أحدهما الآخر اندفعا إليها جميعا ، ولا يخفى تصوير المجاز للغضب الإلهي بالوقوف على جرف جهنم فعلا ، لأنه موصل إليها ، وما يهم هو استحضار الغائب ، وتلاعب الصورة بالمشاعر المسلمة بهذا التقريب المخيف المهتز « جرف جهنم» وما له من تخويف .

كما نجد الترهيب من تخطي رقاب الناس يوم الجمعة أن هذا المتخطي المتأخر جهلا وإيذاء يصور المجاز عاقبة عمله ، وسوء فعله بما يئول إليه ، إن هنا جسرا خاصا موصلا إلى ما تستعيذ منه الحواس ، إنها جهنم إنه جسر مرئي تحته نار ونهايته نار فليتخط الرقاب من يشاء إذن إن كان يريد .

أمشاج أخرى من علاقة ما يئول إليه :

قال رسول الله ﷺ : ١- « من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجى قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال : جناها »[١].

٢- « من قتل قتيلا فله سلبه »[٢].

٣- « من قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[٣].

---

(١) التاج الجامع ١٩٧/٣ .

(٢) المرجع السابق ٤٩٧/١ .

(٣) المرجع السابق ٢٣٨/٢ .

٤- «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»[١].
٥- «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[٢].
٦- «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة»[٣].

والحديث الأول ترغيب في عيادة المريض توثيقا للصلات الاجتماعية وتخفيفا عن المرضى، والجزاء هنا يصوره المجاز محققا مجسما، تصويرا للثواب بما يئول إليه، ولقد روى الشريف الرضي الحديث بتغيير فيه «عائد المريض على مخارف الجنة»، قال: فإن كان المراد المخارف جمع مخرف وهو جنى النخل، فكأنه عليه الصلاة والسلام شهد لعائد المريض بدخول الجنة، وحقق له ذلك حتى عبر عنه، وهو بعد في دار التكليف بعبارة من صار إلى دار الخلود ثقة له بالوصول إلى الجنة، والنزول في دار الأمنة، وهذا موضع المجاز[٤].

والحديث الثاني: يرغب في الجهاد بالمغنم الدنيوي «من قتل قتيلا فله سلبه»، فلقد وصل في نهاية المشرك دفعة واحدة فسلمه قتيلا باعتبار ما يصير إليه، تهوينا على المجاهد، وتأميلا له في الانتصار، وحثا له لمنحه سلب الكافر، قال الزمخشري في الآية من سورة نوح: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ وصفهم بما يصيرون إليه كقوله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه»[٥].

كما نجد الترغيب في الدفاع عن الدين والدم، والمال والعرض بالترقي في نوع القتل بجعله استشهادا، فأمره آيل إلى هذه الصورة المشرفة صورة الاستشهاد، وقد يأتي هذا اللون من المجاز لتقرير حكم شرعي «لا وصية لوارث» وحين الوصية والموصي حي لا وراثة، ولا وارث، ولكنه تجوز بإطلاق الوارث على من يستحق الإرث قوة في التصوير، وتأكيدا للحكم، ثم لمحا للآتي البعيد تزهيدا في الدنيا ونهاية أمرها.

---

(١) التاج الجامع ٢/٢٢٣.
(٢) المرجع السابق ٢/٢٣٨.
(٣) المرجع السابق ٥/٦٥.
(٤) المجازات النبوية ص ١١٣، ١١٤.
(٥) الكشاف ١/٤٩٧.

وقد يأتي المجاز بوصف ينفر تقبيحا له ، ولصاحبه ، «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» ولا يسمى المتفحش زانيا إلا بعد وقوع جريمته ، وفيه مع نفي الإيمان عنه دفع له بهذا الوصف المتقذر الذي يئول إليه أمره وهو وصف ثابت لا ينفك عنه ، وهذا الأسلوب التربوي في بيان الجرائم وتبشيعها قبل وقوعها أوقع في النفس الإنسانية من جملة الأوامر والنواهي .

ولا بأس أن نورد شذرات للإمام الزمخشري عن هذه العلاقة قال عنها : كقول رسول الله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه» وعن ابن عباس : «إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض ، وتضل الدابة وتكثف الحاجة» فسمى المشارف للقتل والمرض والضلال ، قتيلا ومريضا وضالا ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي صائر إلى الفجور والكفر[1] .

وقد ذكر المجاز ولم يكشف عن أسراره ، فهنا دفع وحفز للمجاهد بتصوير الغنم والسلب وكأنه واقع فعلا ، وكأن القتل للعدو أمر لاشك فيه فهو قتيل ملقى تدوسه الأقدام ، وفي تأخير الحج للقادر إثم فمن يضمن ما تأتي به المقادير ، وهذه صور ملتقطة لما قد يحدث : مريض هنا لا يستطيع حراكا ، وراحلة نفرت فضلت وصاحبها في حيرة ، إن النهاية المخوفة المعرقلة قد أحضرت تخييلا وتصويرا إلهامًا للمشاعر وتهييجا للعواطف بالإسراع إلى الحج .

علاقة الجزئية والكلية :

قال رسول الله ﷺ : ١- «ويل للأعقاب من النار ، ويل للعراقيب من النار[2]، فيمن لم يتعهدهما في الوضوء».

٢- «اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري ، ومخي وعظمي ، وعصبي»[3].

---

(١) انظر : الكشاف ٢٨/١ .

(٢) التاج الجامع ١٠٥/١ .

(٣) المرجع السابق ٩٣/١ .

٣- «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[1].

٤- «أفضل الصدقة ما ترك تمني واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول»[2].

٥- «من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[3].

٦- «دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمهما أجرا الذي أنفقته على أهلك»[4].

٧- «الظهر يركب إذا كان مرهونا»[5].

٨- لثوبان ﷺ «لا عليك بكثرة السجود» ، ولربيعة بن كعب الأنصار ﷺ «أعني على نفسك بكثرة السجود»[6].

وهذه الجملة من الأحاديث بين ترغيب وترهيب،وتضرع وتقرير أو وصف وقد تجوز فيها بإطلاق الجزء على الكل مبالغة في هذا الجزء ، وبيانا لمدخليته في الحدث ، وتأكيدا لما ينطق به من تصوير أو إرشاد ، ونلاحظ ملاءمة العضو المخصوص للغرض المقصود .

والحديث الأول إنكار على المتسرع في الوضوء ، خاصة الأعقاب فهى مظنة الترك والإهمال ، فأفردها وحدها مسبوقة بالويل ملحقة بذكر النار ، والتعذيب لمن هو في النار لا يكون لعضو فرد ، بل النار مشتملة محيطة ، ولكنه خيل تفرد العراقيب بهذا الجزاء ، وهي وحدها لا حس لها ولا إرادة ، ولكن لما كان ترك غسلها سبب الإثم بإبطال الوضوء والصلاة ، وإحباط العمل كان تسليط الجزاء عليها بلوغا بالترهيب كل مدى .

---

(١) التاج الجامع ٤/٣٦٦ .
(٢) المرجع السابق ٢/٣٦٦ .
(٣) المرجع السابق ٣/٤٦
(٤) المرجع السابق ٢/٣٧ .
(٥) المرجع السابق ٢/٢١٦
(٦) المرجع السابق ١/١٣٦ .

وعندما تلتقي بتضرع النبي ﷺ «خشع لك سمعي ، وبصري ، ومخي ، وعظمي ، وعصبي» والخشوع صفة شعورية مركبة من الخوف والحب تشمل الإنسان كله ، لكنه أسندها إلى هذه الأعضاء كأن كلا منها قد استغرق في خضوع وخشوع ، وكأنها ذوات في ذات تدور في فلك الإنابة والخضوع وهي ذوات منها المرئي ومنها الخفي في هيكل الجسم مع عظم وعصب ، فالخشوع ظاهرا وباطنا ، برهان الفناء في العبادة .

والحديث بعده : «عينان لا تمسهما النار» ، نجد ترغيبا بالجزاء الأخروي بالإبعاد الشديد من النار ، والعينان مقصود بهما صاحبهما إذ لا يتصور النجاة من النار أو البكاء خشية الله ، أو السهر حماية للوطن للعين دون صاحبهما ، لكن لما كان للعين هنا دور أساسي خطير في الحدث أسنده إليها ، ذلك أن الخوف انفعال نفسي عام والمرابط يحرس وطنه ساهرا مدافعا ، وفي الحالين نجد العين مظهرا للخوف والبكاء ودليلا على السهر باتساع الحدقة مبالغة في دورها وتخييلا باستقلالها إذ بها وحدها يكون الحماية والسهر ؛ ولذا خصها بالجزاء مشاكلة وطردًا للأسلوب على وتيرة واحدة .

أما اليد : فنجدها في حديث يرغب في الصدقة ، وينفر من السؤال ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، معبرا بها عن صاحبها مجازا ، بيانا لدورها في التصدق إذ تمتد عطاء أو أخذا ، وكأن هذه اليد مخلوق ذو إرادة يتصرف في المال،والتي تمتد بالعطاء فتمنح تكون أعلى من تلك التي تمتد في ذلة تتلقف، ولا بأس أن نقف هنا بقدر ما ناقش الشريف المرتضى رحمه الله فقد اختار أن تكون اليد في الحديث هي العطية والنعمة قال «لأن النعمة قد تسمى يدا في مذهب أهل اللسان بغير شك ، فكأنه ﷺ أراد أن العطية الجزيلة خير من العطية القليلة ، وهذا حث منه على المكارم ، وتحضيض على اصطناع المعروف بأوجز الكلام ، وأحسنه مخرجا»[1].

---

(١) انظر : غرر الفوائد (أمالي المرتضى) ٢/٦٧ .

ولا يخفى أن مراد الحديث الدعوة إلى التصدق وفيه البذل والسخاء ، والتنفير من السؤال وفيه الذلة والخضوع ، وليس المراد المفاضلة بين كثرة المبذول وقلته ، فالأهم هو النية الصادقة وراء البذل ، مع جعله بذل القليل تسفلاً ، وفي هذا ما فيه من منافاة لروح الإسلام ، ولقول النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة »[1].

لقد كانت نظرة الشريف الرضي أبعد وأعمق حيث قال :« أراد باليد العليا يد المعطي ، وباليد السافلة يد المستعطى ، ولم يرد على الحقيقة أن هناك عاليا ، وسافلا وصاعدا ونازلا » ثم قال وقد خانه تعبيره « إنما كنى عليه الصلاة والسلام عن هاتين الحالتين باليدين لأن الأغلب أن يكون بهما الإعطاء والبذل وبهما القرض والأخذ »[2].

ولعله لا يقصد من « كنى » معناها المعهود وإنما هو مجاز مرسل ، والعجب من المحقق الذي ذهب إلى إخراج الأسلوب على الاستعارة وهو قول متهافت[3] ، لكن المهم من أسرار الحديث هذه الموازنة بين يدين ثم المفاضلة بينهما برفع الأولى حسا وفضلا ، كما نلاحظ :

١- تجسيم الإعطاء والأخذ وتصور حركتهما المحسوسة ، وأن ثمة يدين تتحركان ، ولكن إحداهما عالية والأخرى نازلة ، مع تصوير العطاء بالعلو ، والأخذ بالسفل تصويرا حركيا للازم عن الملزوم .

٢- ما في التصوير من مدح وترغيب في التصدق لعلو يد المتصدق ، والعلو محبوب ، وذم السائل لأن يده سفلى ، والسفل في الطباع مكروه ، ولا بأس أن نشير إلى أن المجاز النبوي حين يصور هيئة الإعطاء يأتي باليد تجسيدا لهذه الهيئة مدحا وترغيبا كالحديث السالف في الاستعارة « ورجل تصدق

---

(١) رياض الصالحين ص ٣٣ .

(٢) انظر : المجازات النبوية ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) المرجع السابق ص٣٦ هامش ٢ .

بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه» والمجاز هنا في الشمال واليمين ، وقد خيل سحر البيان استواءهما شخصين يخادع أحدهما الآخر فينفق دون علمه فضلا ، وخيرا ، كأن الخداع في الخير خير كالخداع في سحر البيان ، فالحديث متفق وجها وغاية ودعوة وغرضًا في طريقة الإنفاق ووجه البيان .

وقد نجد اليد مرادا بها صاحبها في معرض الذم لمن يخرج عن الجماعة وطاعة الحاكم وقد عاهده «من خلع يدا من طاعة ، لقى الله يوم القيامة لا حجة له».

ولما كان التوثيق وإعطاء العهد إنما يكون بالقبض باليد عرفا عربيا صور العاصي لحاكمه بمن يخلع يده من عهد على الطاعة ، تجسيدا لهذا العصيان وتنفيرا منه ، مع الإيجاز ، وبقية الحديث «ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية» ، والتركيز هنا على العنق في البيعة لأن العهد والبيعة إلزام وانقياد والعنق يؤخذ به ، ويوجه منه ولا يتفلت منه كما يقول من يلتزم بشيء هو في رقبتي ، كالرقبة في العنق «ودينار أنفقته في رقبة» ترغيبا في تحرير العبيد ، ذلك بأن الرقبة مقدمة الجسم ، ومنها تقاد الدابة ، فأفردت في الذكر تركيزا على ما لا يكون المرء إلا به والمراد صاحبها .

أما الحديث «الظهر يركب إذا كان مرهونا» فيقدر حكما شرعا ركوب الدابة إذا كانت مرهونة ، وقد عبر عن الدابة بالظهر لأنه المخصص للركوب ومحله وبيان الانتفاع بالدابة إذ لا يكون إلا بالركوب على الظهر ، والجزء هنا خاص بالحدث «الركوب» كما أنه هام لا تتصور دابة ولا الانتفاع بها إلا به .

وفي الحديثين الأخيرين : أعني على نفسك بكثرة السجود ـ عليك بكثرة السجود ـ وأداء الصلاة لأن الصلاة دعاء وتضرع ومناجاة دلالة الفقد والذل لله ، وأظهر ما يكون هذا في السجود بوضع أشرف الأعضاء في مواطن الأقدام لله رب العالمين ، تصويرا لحسن أثره ، وترغيبا في الإكثار منه وكأنه لب الصلاة وخلاصتها ، وسرها الكريم .

السبب والمسبب :

١- عن جابر رضي الله عنه : خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر ، فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء : فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك ، فقال : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العمى السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ، ويغسل سائر جسده »(١).

٢- قال ﷺ : « أكثروا من ذكر هازم اللذات »(٢).

٣- « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه فقيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال : يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه »(٣).

٤- « لا يقطع الصلاة شيء وادرأوا ما استطعتم ، فإنما هو شيطان »(٤).

٥- رفع إلى رسول الله ﷺ ابن ابنته وهو صبي ، ونفسه تتقعقع كأنها سن ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا؟ فقال « هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »(٥).

٦- من حديث السبعة الذي يظلهم الله « رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »(٦).

والحديث الأول : يفضح أثر الجهل في إهلاك الناس ، ولقد صوّر فتواهم بوجوب الغسل مع شج الرأس والأذى المترتب عليها بالقتل ، لأنه سببه الظاهر ، وتمثيل هذه الجريمة في الخيال مع نِسبتها إليهم ، واتباعها بالدعاء عليهم من جنس فعلتهم « قتلهم الله » تبشيعا لجريمتهم ، وردعا لهم ولأمثالهم عن الإفتاء بغير علم ، فهنا صور السبب بصورة المسبب .

---

(١) التاج الجامع ١٢٨/١ .
(٢) المرجع السابق ٢٣٨/١ .
(٣) المرجع السابق ١٠/٥ .
(٤) المرجع السابق ١٧٤/١ .
(٥) المرجع السابق ٧٦/٥ .
(٦) المرجع السابق ١٦٣/٤ .

وفي الثاني : نجد الوعظ وذكر الموت ، ولم يذكر الموت صراحة بل ذكر أثره وما يتسبب عن وقوعه مما تراه العين ، ويرتعب له الخيال ، تحقيقا في التصوير ، وتأكيدًا للغرض ، والبراعة هنا في مناسبة الوعظ باختصاص الموت بقطع اللذات لأنها موطن التكالب والصراع البشري ، وللذات ظلال في أحاسيس الإنسان فإذا ذكر ما يقطعها ويهزمها انكمش حب الشهوة ، وحل الورع والخوف من الله والدار الآخرة .

والحديث الثاني : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» بهذه البداية الغريبة التي تشد الانتباه ، وقد هزت المقدمة أعماق الصحابة فاندفعوا يسألون ، ذلك أن هذا الصنيع في عصر النبوة بل وعصر الجاهلية مناف للخلق العربي ، ويوضح الحديث قرينة التجوز ، وينكشف التصوير المؤكد بعد أن وفرت له طريقة قوة على قوة وقد صدر المسبب «اللعن» بصورة السبب (السب) تنفيرا من هجر القول وبذاءة اللسان .

وعلى درب الترهيب نجد الحديث الثاني : فالمصلي يجد أحيانا اندفاع بعض الناس أو الأطفال أو الحيوانات بين يديه ، وقد يلهيه ذلك عن صلاته ويفسد عليه خضوعه ، وقد طوى الحديث كل ذلك فصوره بسببه المحرك له إنه الشيطان يلعب بضعاف العقول فيدفعهم إلى إفساد الصلاة ونرى الإثارة هنا من ناحيتين : ردع المار بين يدي المصلي ، وكفى به ألعوبة يحركها الشيطان ، وحث للمصلي أن يدرأ ما استطاع فإنما يجاهد الشيطان ، وذكر الشيطان وحده كاف في إثارة مشاعر النفور والبغض لهذا العدو الخبيث .

أما هذا الشعور المقدس للنبي الرحيم ﷺ فقد صور الدموع محسوسة معروفة للخيال لونا وحجما ، وحرارة بصورة سببها الباعث عليها وهو شعور قلبي كريم ، تجسيدا للرحمة دافئة بيضاء تنسكب في انفعال وتأثر تصويرا ذاتيا لمشاعر نبي كريم ،ودعوة إلى الرحمة وإباحة للدموع الطاهرة في موقف نبيل .

والحديث الأخير « ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» .

قال الإمام الزمخشري في الآية ٨٣ من سورة المائدة ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ معناه : تمتلئ من الدمع حتى تفيض ؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب[1].

ففي الحديث إذن مجاز مرسل ، وسر التعبير القصد إلى طي الكلام وإيجازه ثم ذكر الفيض وهو المسبب مرة واحدة ، وهو الغاية التي ينفعل بها الخيال ؛ إذ هناك حركة دائبة من دموع متقاطرة متوالية أثر الفيض ، ثم هناك تلاؤم خاص قلب يفيض إجلالا ، وعين تفيض دموعا تصويرا لأثر الحب والخوف في نفس الطائع مدحا وترغيبا في التأسي ، وترشيحا لما يستحق من جزاء عظيم سابق ، «من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

ويتعلق بالسبب أحاديث نجد فيها الإيجاز يطوي العبارة ويقرب البعيد ويختزل الأسلوب كأنه كائن قوة في المعنى ، وتأكيدا للغرض وبراعة في التصوير كهذه الأحاديث .

عن معاوية الفيشري : قلت يا رسول الله : ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : «تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت»[2].

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته»[3].

وأصل الأساليب : إذا أردت الطعام وإذا أردت الاكتساء ، وإذا أردتم القتل ، أو الذبح ، فهي أساليب شرطية وجواب الشرط ليس معلقا في الواقع على فعل الشرط المذكور ، لأنه ماض ولم يقع بعد خارجا ، بل على إرادته ونيته إذ بعد

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/٥٢١ ، ٥٢٢ .
(٢) التاج الجامع ٢/٣١٦ .
(٣) المرجع السابق ٣/٩ .

وقوع فعل الشرط وهو «القتل أو الذبح» مثلا يكون الجواب غير واضح ، وإنما طوى النية والإرادة المتسببة في الأحداث والأفعال أسلوبا لأنها مطوية في القلوب توافقا بين ظاهر الأفعال وخفيها وبين تركيب الأساليب ، وجاء المسبب مباشرة لأن القصد إليه والتوجيه والإرشاد منوط به والسلوك البشري مبني عليه ، ثم افتراضًا في المخاطب وقوع ما عزم عليه والمبادرة إلى تعليمه بإيجاز وتجوز ليشغل الذهن ويلفت العقل ويؤكد الغرض من إرشاد لأحكام هامة صورت أبدع تصوير .

الحالية والمحلية :

قال رسول الله ﷺ : ١- «لا تركبوا الخز ولا النار»[(١)].

٢- عن علي ﷺ قال : إن نبي الله أخذ حريرا فجعله في يمينه وأخذ ذهبا فجعله في شماله ثم قال «إن هذين حرام على ذكور أمتي»[(٢)].

٣- «إن إبراهيم حرم مكة ، ودعا لأهلها ، وإني حرمت المدينة ، كما حرم إبراهيم مكه»[(٣)].

٤- «البسوا من ثيابكم البياض وكفنوا فيها موتاكم»[(٤)].

٥- «أريت قوما من أمتي يركبون ظهر البحر كالملوك على الأسرة»[(٥)].

٦- «فيمن ترك صلاة العشاء ، لو علم أحدكم أنه يجد عظما سمينًا لشهدها»[(٦)].

هذه الأحاديث سيقت للإرشاد والتعليم والعظة والتقرير ، واعتمدت المجاز المرسل معرضا لها ، ونجد في جميعها الإيجاز والقصد إلى سوق الحكم مباشرة مع جودة التصوير : فالحديث الأول : ينهي عن استعمال الحرير في السرج وعلى ظهور الدواب ، يعني : لا تركبوا دواب على ظهورها ، وسرجها

---

(١) التاج الجامع ١٨٣/٣ .
(٢) المرجع السابق ١٤٩/٣ .
(٣) المرجع السابق ١٨٢/٢ .
(٤) المرجع السابق ١٥٥/٣ .
(٥) المرجع السابق ٣٣٠/٤ .
(٦) المرجع السابق ٢٤٩/١ .

حرير أو جلود نمار ، فاختصر العبارة وأوقع الركوب على الخز والنمار لأنها محل الركوب وملاصقة لمتون الدواب ، فخيل استقلالها وانفرادها لأنها المقصودة بالنهي تأكيدا للحكم وقوة في النهي .

والحديث الثاني «إن هذين حرام» والحرمة حكم لا يتعلق بذات ـ الذهب والحرير بل باستعمالهما ، فأسند الحرمة إليهما لأنهما محل الاستعمال ، ولتخييل أن الحرمة قد شملتهما في ذاتهما ، فتعديها إلى استعمالها من باب أولى ، مبالغة في المنع والتحريم .

وكذلك : حرم واقعا على مكة والمدينة ، فقد صور الحال ، وهو الفتح والانتهاك ، أو الرعاية والحماية بصورة المحل وهو مكة والمدينة كأن كل ساكن أو متحرك فيهما أصبح بين حلال أو حرام في ذاتهما ، تقديسًا للمدينتين ورفعا لشأنهما .

والملابس البيضاء رمز النقاء ، ودليل النظافة يوصي بها الحديث ، عامدا إلى التصوير والتخييل والإيجاز ، بالقصد إلى اللون مباشرة وهو البياض ، وإنه لعرض لا يقوم بذاته ، فمحل استقلاله وانفراده عن محل يقوم به ، وكأن من يرتدي ثوبًا أبيض إنما يرتدي البياض ذاته ، تصويرا غريبا لا يقضي منه الخيال دهشًا ، تأكيدا للإرشاد ، ودعوة بدليلها لارتداء الملابس البيضاء في الحياة وحتى في الكفن قبل مواراة الثرى .

والبحر لا يركب ظهره مباشرة ، وإنما تمخر السفن عبابه وتشق الجواري لججه فصور الحال وهو السفن بصورة المحل وهو البحر مبالغة في السفن وكأنها قد غطت البحر كله ، فهم حين يركبونها إنما يمتطون ظهر البحر هكذا دون وسيلة بلوغا في القدرة والعزة كل مدى ، ولا يخفى هذا التلازم بين السفن والبحر ، فلا سفن إلا في بحر ، وفي هذا المجاز ما يؤكد الصورة التي كشف الغيب لثامها فرآها الناس حقيقة مشرقة دالة على عزة الإسلام وقوة المسلمين كما لا يخفى أثر التشبيه وإيحاؤه في غنى الصورة وتدعيم مضمونها .

والحديث الثاني فيمن يتخلف عن صلاة العشاء في جماعة ، موبخًا مصورا تفاهة شأنهم ، وحقارة نفوسهم بأنهم لو علموا أن بالمسجد زادا أو طعاما زائلا ، لأتوا مهطعين ، والمجاز هنا مقتدر في بلاغته الفائقة ، فقد صور الزائل من الطعام بالعظم السمين ، والعظم لا يوصف بالسمين ، والمراد اللحم على العظم ، فقد أطلق المحل وأراد الحال ، وهو اللحم والشحم لانبنائها عليه ، ثم إن في هذا المجال سرا آخر هو كشف اللثام عن نهاية المتاع ، وفيه كشف لأعماق المتخلفين وتصويرا لجشعهم وعبوديتهم للدنيا وزائل المتاع ، فهم لو أحسوا أن في المساجد عظما ، نعم عظما لسارعوا إليه وتطاحنوا عليه تقبيحا وتنفيرا وترهيبا .

الآلية :

قال رسول الله ﷺ :

١- « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »[١].

٢- في دعائه ﷺ « أسألك لسانا صادقا ، وقلبا سليما »[٢].

٣- عن ثوبان رضي الله عنه : قال : لما نزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣٤) ، كنا مع النبي ﷺ في سفر فقال بعض أصحابه : يا رسول الله أنزل في الذهب والفضة ما أنزل لو علمنا أن نتخذه ، فقال : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه »[٣].

٤- « إنها ستكون فتنة تستنظف العرب ، قتلاها في النار ، اللسان فيها أشد من وقع السيف »[٤].

ونلاحظ في هذه المجموعة كلمة « لسان » تكررت أربع مرات تجوزا لا يراد بها حقيقتها مع اختلاف جهة المعنى والمراد كل مرة ، وهذا من البيان .

---

(١) التاج الجامع ٣/٣١٣ .
(٢) المرجع السابق ٥/١٢٢ .
(٣) المرجع السابق ٣/١٣٢ .
(٤) المرجع السابق ٥/٣٠٣ .

والحديث الأول : مدح لعمر رضي الله عنه بأن الحق في قوله وبيانه ، واللسان آلة القول وأداته مبالغة في قول الحق وأنه تعدى البيان إلى اللسان ، فالحق مركب موضوع عليه يتحرك به كيفما كان .

وفي التضرع النبوي يراد باللسان الصادق : الذكر الحسن ، دنيا وأخرى ، واللسان هنا أعم معنى من الأول لأن النبي ﷺ رفع ذكره بين العالمين مقرونا باسم الله تعالى إلى يوم الدين وكذلك في الآخرة ، وقد ذكر اللسان لأنه آلة الذكر ، فكأن الذكر الطيب تجسد لسانا ناطقًا مع ما في اللسان من وصفه بالصدق تضرعا يرفع الدرجة وصالح العمل وبقاء الأثر .

وفي الثالث نسبة الذكر إلى اللسان والذاكر هو صاحبه بمشاعره وإرادته واللسان معبر عما في القلب فهو آلة الذكر المفصح عنه ، وقد بولغ في الذكر دعوة إليه حتى صح أن توصف به آلته نفسها دلالة على كثرته واستمراره .

واللسان في الأحاديث الثلاثة استعمل مجازا في القول الخير .

أما الحديث الأخير في اللسان فقد جاء فيه في معرض الذم مصورا الأقوال الثائرة والكلمات الفائرة ، والخطب الملتهبة والأقاويل المغرضة التي تؤجج الفتن ، وقد عبر باللسان عما يعرفه الخيال أيام الفتن الهوج ، لأنه أداتها الحبارة ، وآلتها المخيفة ، ولقد وفر باقي الحديث للمجاز مضاءة اللسان فيها أشد وقعا من السيف ، لأن السيف قد يقتل أعدادا ، أما اللسان فإنه يحصد شعوبا ، ولذا كان الذم والوعيد ، وكان التصوير معرضه ووسيلته .

وقد بقي من الحديث الثالث قوله « وقلب شاكر » والمراد صاحب القلب الذي يشكر نعم الله تعالى ، والشكر شعور موطنه القلب ، وهو شعور غطى على غيره من المشاعر فأصبح وصف الشكر ملازما للقلب ، كما أن القلب مع كونه موطن الشكر هو أيضًا أغلى الأجزاء فنسب الشكر إليه وكأنما تحول المرء كله قلبا شاكرا والعلاقة هنا المحلية والجزئية بالاعتبار كما وضحت .

اللازمية والملزومية :

قال رسول الله ﷺ : ١- «للصحابي» «صم شهر الصبر ، ويوما من كل شهر»[١].

٢- «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وآت الذي هو خير»[٢].

٣- «لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[٣].

والواقع أن اللزوم الذهني متحقق في كل ضروب المجاز لأنه انتقال من لازم إلى ملزوم ، ونوع من تداعي المعاني في الذهن والخيال ، بيد أن اللزوم هنا أقوى من اللزوم العام ، ولذا كان علاقة مستقلة في كتب البيان .

وفي الأحاديث نجد المبالغة في التصوير قد تعدت الملزوم إلى اللازم فصورته بصورته فرمضان بما فيه من حرمان وإمساك عن المتع يلزمه الصبر الشديد عنها ، فكأن الصبر أبرز ما فيه ، وأوضح معالمه ، فبالغ في الصبر ، ونسب إليه الشهر فهو شهر الصبر ترغيبا فيهما جميعا .

وفي حديث «اليمين» ليس الهدف المفاضلة بين صيغ اليمين لامتناعها عقلا وشرعا ، وإنما المراد من حلف على فعل شيء أو تركه ، ولما كان اليمين تقتضي محلوفا عليه ، للتلازم الذهني بينهما عبر عن المحلوف عليه باليمين تعبيرا يرسب الحذر والحيطة ، عند اللجوء لتأكيد أمر المقسم عليه ذلك أن الأمر المقسم عليه ليس ثوب القسم وكل حرمته فليتحر المرء أعماله ولا يغامر باليمين كلما حلاله ، تنفيرا وتوجيهًا .

والحديث الأخير : صور الاحتشاد والجمرة ونية التجمع ، بالعيد لأنه من لوازمه ومن أخص سماته ، على أن المجاز هنا يحسن تصويره كأنما ليخفف

---

(١) التاج الجامع ٩١/٢ .
(٢) المرجع السابق ٨٦/٣ .
(٣) المرجع السابق ٧٥/٤ .

التوتر الشعوري الحزين في لفظ «قبري» فهنا تعادل شعوري بين اللفظين ثم إن العيد قد يحدث فيه من المباح أو المكروه أو ما لا يليق بجلال المقام النبوي فهى كلمة مجازية موحية لها أكثر من جهة وكلها مراد متصور في المعنى والأسلوب .

ثالثًا : المجاز العقلي

قال رسول الله ﷺ : ١- من حديث عبد الله بن مسعود ، «فو الله الذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

٢- «إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم»(٢).

٣- من حديث أبي هريرة «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٣).

٤- «إن خير أكحالكم الإثمد يجلو البصر ، وينبت الشعر»(٤).

٥- «شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع»(٥).

٦- من دعائه ﷺ «اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي»(٦).

٧- «ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها ، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»(٧).

---

(١) التاج الجامع ٣٨/١ .
(٢) المرجع السابق ١٦٣/٥ .
(٣) المرجع السابق ٦٣/١ .
(٤) المرجع السابق ١٥٥/٣ .
(٥) المرجع السابق ٣٧١/٤ .
(٦) المرجع السابق ١٠٧/٥ .
(٧) المرجع السابق ١٩٥/٣ .

ونلاحظ في هذه الأحاديث ضربا من التجوز غير ما سلف ، ذلك أن الكلمة هنا مسند أو مسند إليها أو فضلة جاءت على أصلها وحتى إن وقع فيها التجوز فهو لغوى ، وإنما التجوز في الإسناد أو في طريقة إثبات الحكم ، ولذا وصف بأنه مجاز عقلي أو حكمي .

والحديث الأول في القدر : يبين أن الله كتب السعداء والأشقياء في اللوح المحفوظ قبل الخلق ، وكتبته الملائكة عندها ، فالمرء ميسر لما خلق له ، يسير وفق ما خط عليه في الكتاب ، فجعل الكتاب مالك أمره ، وموجه قدره ، ومصيره ، فقال : فيسبق عليه الكتاب ، فأسند الفعل إلى محله ، تصويرا لخطورة الكتاب والمكتوب جميعا ، بيانا للعجز الإنساني ، وقوة نفاذ الكتاب ، وسيطرته على سير حياة الإنسان بقدر لا يحيد عنه مع الإيجاز البليغ .

والحديث الثاني : سبق في الاستعارة التمثيلية تصويرا لحال الدنيا والناجي فيها ، والهالك ، وقد كان للتجوز الحكمي دور في الصورة ، فالعبارة « كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم » نجد الإنبات والربيع على وضعهما اللغوي والتجوز في إسناد الإنبات إلى الربيع والأصل : « كل ما أنبت الله وقت الربيع ، ولنسج صور فنية طويت العبارة ، وأسند الإنبات إلى فاعل مجازي له ملابسة للفاعل الحقيقي ، ذلك أن الربيع زمن ، يهيئ الله فيه الظروف الطبيعية للنبات فينمو ويخضر ، والتصوير هنا يخيل أن الإنبات قد تكاثر وطغى بصورة جعلت الزمن نفسه وهو معنى ينبت تخييلا ، وفي العبارة مجاز آخر بإسناد القتل حبطا إلى ضمير كل ، وهو نبات الربيع تصويرا لأثره ، وسببيته الظاهرة في القتل ، معناها للفاعل الحقيقي ، مبالغة وتخييلا ».

والحديث الثالث : نجد علاقة التجوز السببية « من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » فأسند بطأ إلى العمل ، وهو معنى معقول ، والمعنى : من أخره الله بسبب عمله السيئ ، فأسند الفعل إلى العمل مبالغة في مدخليته في الحدث ، لأنه سببه ، ونجد هنا قوة الترغيب في العمل الصالح ، ومزيدا للترهيب من سيئ العمل ، لأنه يؤخر صاحبه يوم القيامة ، كما نجد الإسراع المنفي مسندا

إلى النسب لنفي توهم أن النسب له دخل في الشفاعة والسرعة إلى الرضوان حسب عرف الجاهلية .

وفي الحديث الرابع : جاء المجاز العقلي في وصف طبيعة الإثمد ، وبيان أثره توجيها للنافع المفيد «الإثمد ينبت الشعر» والإثمد لا ينبت بنفسه ، ولكنه سبب ظاهري ، ولما كان الناس بالظاهر نسب إليه الإنبات ، مبالغة في أهميته وتصويرا لحسن أثره .

أما الحديث : «شر ما في الرجل شح هالع ، وجبن خالع» في التنفير من الشح والجبن فنجد طبيعة التركيب المعجز في الحديث : أسلوبا جامعا حكيما فيه تصوير وإيحاء يعالج طبيعتين تمسخان الإنسان وقد توفر هنا ما يلي :

١- إسناد الهلع ، وهو شدة الرعب إلى الشح ، وإسناد الخلع الواقع على القلب ، والمقصود فظاعة الخوف إلى ضميري الشح والجبن فاعلين مجازيين مبالغة فيما يجره الشح والجبن من هلع ورعب ، كأنهما وصلا درجة تخطت الفاعل الحقيقي إلى السبب الباعث ، وهو وصف غرزي اقتدارًا في العبارة وبراعة في التصوير وشدة في المبالغة .

٢- حذف المفعول في هالع والخالع ، وهو في الأول صاحب الشح والثاني قلبه ، تحقيرا ، وأن الهلع والخوف والخلع قد محاه محوا من عالم الرجولة ، فليمح من دنيا الأساليب ، وهو من التلاؤم بين طبيعة البشر ، وطبيعة الأساليب سحرا في البيان ، مع الموازنة والسجع بالإيقاع المعبر بتكرار مقطع واحد ، حركة فسكون سريعين في «شح ، جبن» وضغطا في الصفة بيانا لأثرها الضاغط في النفوس ، ثم فتحة طويلة في «هالع وخالع» بيانا لانتشار هذا الشعور الجارف من الهلع والخوف ، كل هذا وفر للمجاز قوته وحدته .

والحديث التالي «في التضرع» «استر عوراتي ، وآمن روعاتي» ، ولا يخفى بادي الرأي خفة الإيقاع ، وجمال التجنيس ، مع هذا التصوير في النسب

الإنشائية بطلب إيقاع الأمن على الروعات ، والروعة والخوف مصدر لا يأمن ، وإنما يأمن صاحبه ، وأصل العبارة : أمنى من روعاتي «فحذف المفعول الحقيقي» ياء المتكلم ، وحذف حرف الجر ، وأوقع الفعل على المفعول المجازي لما له من أثر في القلوب والنفوس ، كأن الروع والخوف طغى واحتد حتى صح أن يوصف به المصدر ، فالروعات خائفة فطلب أمنها ، وتهدئ روعها تخييلا بارعا وتصويرا فذا .

والحديث الأخير : يرغب في الصبر على الأذى بأنواعه ، ببيان أثره في غفران الذنوب :

ولقد صور فيه سرعة المغفرة ومحو الذنوب بمظهر طبيعي زمن الخريف حين تتساقط الأوراق الصفراء تاركة جسم الشجرة القوي المتين .

وقد قام المجاز العقلي بدوره في إتمام الصورة بإسناد حط الأوراق إلى الشجرة ، وهذا الانفصال بقطع الغذاء بتدبير الله وحكمته في سنن الطبيعة فأسند الحط إلى الشجرة لأنها مكان الأوراق وأصلها ، استحضارا للصورة وبيانا لأثر الشجرة الأم لأنها أبرز ما في الصورة مبالغة وتخييلا وتتميمًا للتشبيه في الترغيب في الصبر والرضا بقضاء الله .

* * *